١٠٧٧

دار م. النحاس

عبير

1077

HARLEQUIN

تضحية أم

فيليس هالدورسون

www.elromancia.com

مرمورية

تضحية أم

فيليس هالدورسون

«لماذا لا تتزوجني اذن، يا كلاي؟»

فصعق وكأنما مسه تيار كهربائي: «لماذا تفكرين في أن تكوني زوجتي، يا تمارا؟»

«لأنني... أحبك.»

«ولكنك لم تعرفيني إلا منذ وقت قصير. وقد يكون شعورك نحوي هو مجرد الأسى لأجلي لأنني أرمل وأربي ابنتي وحدي، وأنا أعرفك مولعة بابنتي فرانسي...»

فقاطعته: «انني بالطبع احب فرانسي.»

لبنان: ٣٠٠٠ ل.ل - سوريا: ٦٠ ل.س - الكويت: ٧٥٠ فلس - البحرين: ١دينار - قطر: ١٠ دراهم - السعودية: ١٠ ريالات - الامارات: ١٠ دراهم - الاردن: ١,٥ دينار - مصر: ٤جنيه.

- أمنية أب -

كان كلاي راتلدج بحاجة إلى من يرعى إبنته... وإذا بمفاجأة تحدث فتظهر تامارا هاوستون، ورغم أن الأرمل كان يعتقد بأنه لن يقع في الغرام مرة أخرى، فقد استطاعت تامارا، يوماً بعد يوم، أن تكسب قلبه. كل شيء كان يبدو مناسباً، فقد حصل على أم مثالية لإبنته الصغيرة، وزوجة محبة رائعة الجمال لتكون زوجته...

- سر أم -

لم تكن تامارا هاوستون قد نوت خداع كلاي راتلدج. فقد كانت جاءت إلى تكساس لرؤية إبنتها... الطفلة التي كانت تخلت عنها منذ سنوات، ولكن عندما قدم إليها كلاي الفرصة لتربي إبنتها الصغيرة، لم تستطع تامارا المقاومة. والآن، لم تستطع رفض عرض الزواج الذي قدمه كلاي إليها - بالرغم من سرّ ماضيها.

فيليس هالدورسون

في السادسة عشرة من عمرها، قابلت زوجها الحالي. تزوجته بعد ذلك بعام، واستقرا لينشئا أسرة، كانت دوماً مشدودة إلى القراءة وكانت تحلم دوماً بأن تجد ذات يوم وقتاً تكتب فيه روايات بنفسها، وجاء ذلك اليوم عندما وصل ولداها إلى سن المراهقة. وعندما تعرفت إلى الروايات العاطفية، أدركت أنها وجدت رسالتها في الحياة والتي طالما أجلتها، وبعد، كيف يمكنها أن تكتب أي شيء آخر بعد أن عاشت كل تلك السنوات في ظل بطلها؟

عبير ١٠٧٧

Abir 1077

تضحية أم

فيليس هالدورسون

دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

www.elromancia.com

تمهيد

كلايتون راتلدج في طريق الأبوة...

عندما علمنا، أنا وزوجتي الراحلة أليسيا، أنه لن يكون بإمكاننا الإنجاب أبداً، أصبت بخيبة الأمل، ولكن كان باستطاعتي تقبل ذلك، لقد كان لدي كل ما أنا بحاجة إليه لكي اكون سعيداً، امرأة أحبها، ومهنة تدر ربحاً، ومنزل ممتاز ولكن أليسيا صدمت. وحيث أن ذلك كان يعني لها الكثير، فقد وافقت معها على حضانة طفل.

لقد فوجئت بتلك الصدمة العنيفة التي شملتني عندما حملت تلك الطفلة، لأول مرة، بين ذراعي، لشد ما كانت ضئيلة الحجم. لقد سبق وحملت اطفالاً من قبل ولكن ليس بهذه الضآلة. وسويت من الدثار حولها فرأيت عينيها مفتوحتين تتطلعان في عيني، ثم ابتسمت لي، لقد اخبرني الناس أن هذا مستحيل، ولكن أنى لهم أن يعلموا. وضعت اصبعي في يدها الصغيرة فأطبقت قبضتها عليها، وسرت في كياني موجة دافئة من العاطفة الابوية، ومنذ تلك اللحظة اصبحت ابنتي، إبنتنا، ثمرة حبنا تماماً كما لو كنت أنا الذي انجبتها.

بعد ست سنوات، أصبحت أرملاً وإبنتي محور حياتي. أما الآن، فلدينا تامارا، التي ملأت الفراغ في حياة إبنتي الصغيرة، فهل بإمكانها أن تخفف من الألم الذي في قلبي، كذلك؟

الفصل الأول

تصاعد صوت وقع حذاء تامارا البالغ ارتفاع كعبه ثمانية سنتمترات، والذي جعل طول قامتها بالكاد تبلغ مائة وثمانية وخمسين سنتمترات، تصاعد على أرضية الردهة، لتتوقف أمام باب كتب عليه (بول والاس . مخبر خاص).

إزدردت ريقها وهي تحاول تمالك نفسها، فهي لم تكن مقدمة على عمل طائش متهور دون تفكير. ذلك أنها أمضت سنوات تفكر فيه، ومنذ أسابيع وهي تقلب الأمر على مختلف وجوهه شاعرة بمنتهى العذاب، فهي لن تغير رأيها الآن.

فتحت الباب ودخلت إلى غرفة استقبال صغيرة نظيفة ولكنها غير فخمة الأثاث، كان ثمة مكتب متواضع يحتل معظم المساحة، بينما النافذة مغطاة بستارة معدنية، هذا إلى خزانة للملفات وأريكة بنية اللون، كان يمثل الأثاث الوحيد في هذا المكتب والذي مع هذا، بدا مزدحماً نظراً لصغر مساحته.

نظرت إليها المرأة المتوسطة السن والتي كانت جالسة أمام جهاز كمبيوتر على المكتب، ثم قالت وهي تصلح من وضع نظاراتها: «نعم، هل يمكنني مساعدتك بشيء؟»

فتقدمت منها تامارا قائلة: «إنني تامارا هاوستون. إن لدي موعداً مع السيد والاس الساعة العاشرة.»

أشارت المرأة إلى باب بجانبها، قائلة: «يمكنك الدخول.» وعادت إلى عملها أمام الجهاز.

تجهم وجه تامارا وهي تفكر في أنه كان عليها، لكي تختار مخبراً خاصاً، أن تستشير اكثر من مجرد الصفحات الصفراء في دليل الهاتف. فهم يطلبون أجراً باهظاً وستكون محظوظة لو أنها استطاعت أن تدفع حتى أجر هذا الذي يبدو متواضعاً.

قرعت الباب بخفة، ثم دخلت، وابتسم الرجل الجالس خلف المكتب وهو يقف لتحيتها. «صباح الخير، إنني بول والاس. هل أنت تامارا هاوستون؟»

اجابت: «نعم، أنا تامارا. كيف حالك؟»

وعندما استقر بهما الجلوس، انطلق في الموضوع مباشرة. «اظنك ستخبرينني الآن عما تريدين أن أقوم به لأجلك.»

كان في صوته رنة خاصة تبعث الهدوء، وكذلك الرضى، في النفس، ما جعلها تقرر أن تضع ثقتها فيه رغم سوء اختياره لأثاث مكتبه وبموظفة الإستقبال الجالسة فيه.

أخذت نفساً عميقاً ثم انطلقت تتحدث: «إنني أريدك أن تجد الطفلة التي كنت تخليت عنها منذ سبع سنوات.»

تلاشت ابتسامة بول والاس ليبدو مكانها تعبير ينم عن الذعر. «غير ممكن أن يكون سنك منذ سبع سنوات اكثر من إحدى عشرة أو اثنتي عشرة سنة.»

فقالت: «بل كنت في السابعة عشرة، وأنا الآن في الرابعة والعشرين.»

هز كتفيه قائلاً: «آسف، ولكن سنك لا يبدو الآن اكثر من السابعة عشرة، ولكن هذا غير مهم، وعلى كل حال، فأنا لا أقوم بهذا النوع من التحريات.» كان صوته الآن قد فقد حرارته وهو يستطرد قائلاً: «يمكنني، إذا شئت، أن انصحك باللجوء إلى مخبر يقوم بذلك.»

قالت وهي مندهشة: «ولكنك لا تفهمني...»

فقاطعها: «كلا، ولهذا لا أقوم بتحريات الأولاد، ليس بإمكاني أن اكون محايداً، ذلك إنني، وزوجتي، قد ربَّينا صبياً، ولا يمكننا احتمال ظهور أمه من مكان ما لتطالبنا به.»

«كلا، إنك مخطىء في ما فهمته، فأنا ليس في نيتي استعادة إبنتي. إنني أريد رؤيتها فقط، أن أعلم ما إذا كانت سعيدة محبوبة.»

هز بول رأسه: «ربما أنت مقتنعة بما تقولين، ولكن عندما تقع أنظارك عليها...» وهز رأسه وهو ينظر إلى تامارا. «كم قلت يبلغ سنها؟»

«إنها في السابعة من عمرها الآن، كما أنني لم أرها قط، وقط لم آخذها بين ذراعي...» واختنق صوتها.

فقاطعها قائلاً: «لا تفعلي هذا، أرجوك. إن هذا لن يغير من الأمر شيئاً، فأنا لن اساعدك في اقلاق حياة أسرة لأنك، بعد سنوات، غيرت عقلك في التخلي عن طفلتك.»

أصرت قائلة: «ولكن الأمر لم يكن بهذا الشكل، فأنا لم اترك إبنتي بإرادتي، كنت مرغمة على ذلك.»

حملق فيها قائلاً: «إنني لست محامياً، ولكنني أعلم الكثير عن هذا القانون، لا يمكن إرغام إمرأة على

تقديم ولدها الحديث الولادة للحضانة، فهذا مخالف للقانون.»

قالت بمرارة: «كان على البعض أن يخبر أهلي بذلك.» كانت تعلم أنه على حق في ما يمكن لظهورها الآن، بعد كل ذلك الوقت، أن يحدث من إضرار بمشاعر طفلتها وأبويها المربيين، ولكن كان من المهم عندها أن تجعله يفهم السبب في رغبتها في تتبع أثر طفلتها. «أرجوك يا سيد والاس، ألا تريد أن تستمع إلى قصتي؟ إنني سأدفع لك أجرة الوقت الذي ستمنحني إياه لذلك، وبعد ذلك، إذا كنت مازلت تشعر بالرفض لهذه القضية، فأنا سأقبل نصيحتك بمخبر آخر.»

تنهد وقد بدا شيء من اللين على ملامحه: «اسمي هو بول، هل أدعوك باسمك تامارا؟»

«نعم، من فضلك.»

«حسناً ياتامارا، إذا كنت تريدين أن تتكلمي، فافعلي، ولن احاسبك على الوقت، ولكن من غير المحتمل أن تتمكني من تغيير رأيي.» واتكأ إلى الخلف. «والآن، تكلمي واخبريني عما حدث.»

حاولت أن تتمثل به فتتخذ وضعاً مريحاً، ولكن وطأة الذكريات، ولهفتها إلى إطلاعه على حاجتها الماسة لرؤية طفلتها، جعلتها تميل إلى الأمام، قائلة ببطء: «الأفضل أن أبدأ منذ البداية. ليس فقط بداية طفلتي، وإنما بداية حياتي.»

رفع بول حاجبه إنما لم يقل شيئاً، بينما تابعت هي: «جئت إلى الحياة لأبوين غير صغيري السن، كانت أمي في

الواحدة والأربعين وكان أبي في السادسة والأربعين، وكانا قد تزوجا منذ عشر سنوات دون أن ينجبا أولاداً، وكان الإثنان مطمئنين في عمل ثابت وصلات وثيقة بمختلف النواحي الإجتماعية في مدينة ريفية صغيرة في ولاية إيوا موطنهما، فكان لمجيئي غير المتوقع أن احدث لديهما مشاعر متضاربة بطبيعة الحال.»

قهقه بول ضاحكاً: «يمكنني أن أتصور ذلك، لا بد أنك أحدثت في حياتهما خضة قوية.»

ابتسمت تامارا: «هذا صحيح، لقد كان أبي رئيساً لاثنين من المصارف المحلية، كما كانت أمي سكرتيرة لإحدى المدارس الثلاث هناك. ولم يكونا قط متفهمين لطبيعة الأطفال. فكانا يميلان إلى الحزم والصرامة في معاملتهما لي، اكثر من آباء أصدقائي، الأصغر سناً منهما، كانا يعيشان طبقاً لمفاهيم اخلاقية بالغة التزمت كان يعتنقها معظم السكان هنالك وإن كانوا لا يلتزمون بها على الدوام. وهذا هو السبب في أنهما وجدا الأمر صعباً عندما تزوجت دون إرادتيهما...» ومنعتها غصة من متابعة الكلام، فغالبت دموعاً أوشكت على التدفق من عينيها.

سارع بول إلى نجدتها بقوله: «اتعنين أنهما لم يساعداك عندما علما بأنك حامل؟»

فأطلقت تامارا ضحكة اختلطت فيها السخرية بالمرارة. «يمكنك أن تقول هذا، نعم، لم يساعداني قط، لقد ثار غضبهما وقاطعاني أنا وزوجي الذي ما لبث ان توفي في حادث سيارة وكنت حينها حاملاً في شهري الرابع.»

وتصاعدت شهقاتها الحبيسة، وتدفقت دموعها، فوضعت وجهها بين يديها وانفجرت بالبكاء.

دفع إليها بول بعلبة مناديل ورقية وهو يقول: «تابعي البكاء، يا سيدتي، واخرجي كل احزانك. إنني سانتظر في المكتب الخارجي. وعندما تهدإين وتصبحين على استعداد لمتابعة حديثك، ناديني لكي أعود.»

نجحت أخيراً في استجماع قواها وتهدئة بكائها. وبعد أن ذهبت لغسل وجهها، عادت مع بول إلى المكتب، عادا إلى الجلوس متقابلين مرة أخرى، حيث نظر إليها بعطف لم يستطع إخفاءه.

سألته: «كم يبلغ عمر إبنك؟»

أجاب: «إثنا عشر عاماً، وأنا أحاول أن أكون صديقه.»

«هذا رائع. لأتابع لك قصتي. فوجيء والدي بنقله إلى فرع آخر من فروع المصرف ولكن في ولاية أخرى، وطبعاً رحلت والدتي معه. وجدت نفسي وحيدة، بلا سند ولا معين.»

«ألم يتصل بك والديك بعد ذلك؟»

«اجل، ولكن مكالماتهما كانت جد قصيرة وجامدة المشاعر. وفي الشهر الأخير من أشهر الحمل تعرفت بإمرأة في حديقة عامة ووجدت نفسي احكي لها عن مشكلتي وخوفي خاصة، وكما ذكرت لك، انني كنت في السابعة عشر من عمري، أي سن الطيش والتهور وعدم الاحساس بالمسؤولية.»

سكتت لتلتقط انفاسها وبدا بول متعاطفاً معها: «هيا يا سيدتي. ما الذي حصل؟»

في الأسبوعين الأخيرين من الحمل زارتني قائلة بأنني ما زلت صغيرة كي أكون أماً ولن انجح كوني بمفردي دون زوج ودون أهل، مقترحة ان أفرح به قلب زوجين حرما نعمة الأبناء. ودأبت على زيارتي ومحاولة اقناعي بحجة أي ما زلت صغيرة ووجود طفل في حياتي وأنا في هذه السن سيعرقلها على كل الاصعدة.»

«وأخيراً وافقت على اقتراحها؟»

أومات تجيب: «كنت مرغمة على ذلك، وقد حطم هذا قلبي، ولكن لم يكن في إمكاني تربية طفلي إذا هما لم يقدما إليّ العون. لقد ولدت الطفلة في الثلاثين من آب (اغسطس). لم أرها قط إلا لمحة حين أسرعوا بالخروج بها من غرفة الولادة، وبعد ذلك بأسبوع، عدت إلى منزلي حيث ابتدأت سنتي الدراسية الثانية.»

«وكيف جرت الأمور بعد ذلك؟»

«قدمت طلب التحاق بجامعة إيوا وقبل طلبي، وحالما تخرجت من المدرسة الثانوية، جئت إلى إيمس حيث وجدت عملاً بدوام غير كامل، وحصلت على ليسانس في الآداب منذ عامين. ومنذ ذلك الحين وأنا أقوم بالتعليم في مدرسة ابتدائية.»

أخذ بول ينقر على المكتب بقلمه. «كم هو محزن التفكير في مأساة كهذه!»

فقالت: «نعم، إنه لأمر محزن، وهذه هي النقطة التي أريد ان أوضحها، لقد تمزقت حياتي كلياً، وصدقني أنني لم أتعمد إلحاق الضرر بأحد، خصوصاً بابنتي، ولكن، الا

ترى؟ إنني أشعر نحوها بالمسؤولية. فقد حملت بها، وولدتها، ثم سلمتها لغرباء لكي يربوها.»

كاد بول أن يقول شيئاً لولا أن سبقته بالكلام: «كلا، أرجوك، دعني أنهي كلامي، إن شعوراً يتملكني بأن والديها بالحضانة يسيئون معاملتها...»

فقاطعها: «تامارا. هذا غير ممكن أبداً. إن إدارة الشؤون الإجتماعية...»

قالت: «إنهم، في إدارة الشؤون الاجتماعية، لا يراقبون سير الأمور في الأسرة بعد أن تتم الاجراءات. إنني أعلم أن هذا موضوع حساس بالنسبة إليك. وأنا لا أريدك أن تظن أنني اعتبرك وزوجتك غير مثاليين لابنكما، ولكنني يجب أن اطمئن إلى أن ابنتي تعيش محبوبة راضية هي أيضاً. فهذه مسؤوليتي نحوها، ولا يمكنني بأي شكل أن أجد راحة بال وأنا أعلم أنني تخليت عنها، رغم تهوري وجريمتي في ذلك، إلا بعد أن اطمئن عليها بنفسي.»

بدا عليه التردد وهو يقول: «إنني أفهم شعورك، ولكن، ما الذي تنوين عمله عندما تعثرين عليها؟»

«بول، أقسم أنني لن أتدخل في حياتها فيما لو كانت سعيدة معافاة وتعامل معاملة طيبة. إنني سأجد طريقة لرؤيتها دون أن تعرف هي أو والداها من أكون. إنني معلمة اعمل طوال النهار مع أطفال في سنها، وأنا أعرف الفرق بين الحزم والمعاملة السيئة. فإذا كان كل شيء على مايرام، فسأعود إلى هنا واستمر في حياتي.»

www.elromancia.com

وضع القلم الذي كان يعبث به، من يده، وقال: «إنك تقولين هذا الآن، ولكن كيف أثق بأنك ستقومين بذلك بعد أن تريها؟»

هزت تامارا رأسها بحزن: «لا يمكنك ذلك، إن عليك فقط أن تثق بي.» ونظرت إليه ضارعة. «أرجوك أن تساعدني. إن بإمكانك أن تجدها. أنا واثقة من ذلك.»

تهدج صوتها، وكرهت نفسها من هذا التصرف العاطفي، ولكن لم يكن بيدها حيلة فقد بددت دموعها ما كانت تتحلى به من ضبط النفس.

تملك بول التردد فترة طويلة، فازدادت خشيتها إلى أن أوشكت على الصراخ، وأخيراً قال: «لا بأس. سأقوم بتحريات لأجلك، ولكنني أنذرك... إذا أنت قمت بأي أمر يسيء إلى تلك الأسرة، دون حاجة، فأنا سوف...»

ولم تسمع بقية كلامه وهي تنفجر باكية، للمرة الثانية في مدى ساعة واحدة.

• • •

مر أسبوع أمضت تامارا الجزء الأكبر منه بقرب الهاتف رغم أن بول كان انذرها بأن هذه الأمور تستغرق وقتاً، لقد انبت نفسها لعدم تحركها لهذا الأمر قبل حلول العطلة الصيفية، إنها على الأقل، كانت وجدت شيئاً يشغلها.

وأخيراً، في اليوم الثامن، تصاعد رنين الهاتف، وهذه المرة كان المتكلم هو بول. «إن لدي خبراً

حسناً، لقد وجدت الطفلة.» غمرت الغبطة تامارا ولكن بول رفض أن يضيف شيئاً آخر في الهاتف. «تعالي الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر هذا اليوم وسأعطيك كل المعلومات.»

وصلت إلى مكتبه الساعة الواحدة، وهكذا كان عليها أن تنتظر إلى حين عودة بول وموظفة الإستقبال من الغداء، أشار إليها بالدخول إلى غرفة المكتب الداخلي حيث بسط ملفاً على المكتب. «إن طفلتك موجودة عند زوجين من سان انطونيو، وهما السيد كلايتون راتلدج وزوجته أليسيا، إنه طبيب وجراح اسنان، وهي مهندسة، كانا يعيشان في منطقة كينع ويليام في سان انطونيو، وهي منطقة تضم بيوتاً قديمة واسعة يسميها كثيرون قصوراً، وكانت قد رممت وأصبحت الآن كنوزاً تاريخية.»

وبدأت تامارا تُكثر من الأسئلة. «هل هي بخير؟ ماذا سمياها؟ هل رأيتها؟» كانت الأسئلة تتدفق في ذهنها بأسرع ما تتفوه بها شفتاها، ولم تترك له مجالاً للإجابة، فضحك بول ورفع يديه قائلاً: «مهلاً مهلاً، اعطيني فرصة، إن اسم الطفلة هو ماري فرانسيز، وحسب معلوماتي، صحتها جيدة. لقد كنت اخبرتني أن دخلك محدود وليس بإمكانك إنفاق الكثير. وهكذا حاولت تخفيض التكاليف وذلك بأخذ هذه المعلومات من التسجيلات فقط، فأنت إذا أردتني أن أذهب إلى تكساس لأتحقق من كل هذا شخصياً، فالتكاليف ستكون اكبر بكثير.»

وقالت تامارا بفرح بالغ: «آه، اشكرك كثيراً، هذا ليس ضرورياً. إنني سأتابع من هذه النقطة. هل هناك شيء آخر تريد أن تخبرني به عنها؟»

«فقط أنها تذهب إلى مدرسة خاصة. سأعطيك الإسم والعنوان. ثم أنني تفحصت أمر الدكتور راتلدج وعلمت أنه أحد أفضل جراحي الأسنان واكثرهم احتراماً في تكساس.» وسكت لحظة ينظر إليها، ثم أضاف: «ها قد انهيت القسم الذي يختص بي، من العمل، فماذا عما يختص بك أنت؟ ماذا تنوين أن تفعلي بالنسبة لهذه المعلومات التي احضرتها إليك؟»

لم تكن تامارا بحالة تسمح لها بالكلام، أو حتى بالتفكير. «ماذا افعل؟ سأذهب إلى سان انطونيو بالطبع.»

فعبس قائلاً: «وماذا بعد ذلك؟»

«سأذهب لرؤية ابنتي الصغيرة واطمئن إلى أنها بخير.»

ما الذي جرى لبول؟ لقد كان يعلم ماذا تنوي عمله عند العثور على ابنتها.

«إنها لم تعد ابنتك الصغيرة، يا تامارا، ولا حاجة بك إلى رؤيتها، لقد علمت أن والديها المتكفلان بتربيتها هما مهنيان ومحترمان في مجتمعهما، ومركزهما المالي راسخ ما يسمح لهما بالعيش في حي راق في المدينة، وإرسالها إلى مدرسة خاصة. ماذا تريدين أن تعلمي اكثر من ذلك؟»

اخمد استنكاره الواضح لما تريد القيام به، شيئاً من بهجتها فقالت: «إنني بحاجة إلى رؤيتها، يا بول. لقد سبق

وقلت لك هذا. إنني أشعر برغبة ساحقة لرؤية ابنتي، وليس بإمكانك أو بإمكان أي أحد آخر أن يمنعني.»

مال على المكتب وهو يرمقها عابساً: «لقد كنت أخبرتني أنك تريدين أن تتأكدي من أنها سعيدة محبوبة. حسناً، لقد اخبرتك لتوي بأنها كذلك، ولهذا، ليس ثمة سبب يجعلك تذهبين لرؤيتها. دعيها لشأنها، يا تامارا، لا تتدخلي في حياتها بعد كل تلك السنوات.»

لم يعجبها كلامه هذا الذي أفسد عليها بهجتها العارمة، فوقفت، تواجهه، وحيث أنها لم تجد وقتاً كافياً لتغيير بنطلونها الجينز وحذائها المنخفض الكعب، فقد كان عليها أن ترفع نظراتها إليه مسافة قدم تقريباً. «كل ما قلته لي هو أنها تعيش في سان انطونيو ولديها والدان ثريان.» وندمت لما تضمنه صوتها من ضيق، ولكنها لن تدعه يدمر بهجتها. «وهذا لا يضمن مطلقاً أنها سعيدة عند آل راتلدج إلا إذا كانت ابنتي ماري فرانسيز شقية معهما، وأنا سأحفظ عهدي ذاك، ولكن لا بد لي من رؤية الطفلة التي ولدتها ولو لدقائق معدودات، أريد أن اتأكد من أن والديها يحبانها ويعاملانها بشكل حسن.»

حملق بول فيها عدة ثوانٍ، ثم تهالك في مقعده وهو يقول: «كل ما أرجوه هو أنني لم أجر نفسي إلى مصائب لا قدرة لي على مواجهتها.»

www.elromancia.com

الفصل الثاني

كان الوقت عصراً عندما استدارت تامارا بسيارتها الزرقاء متجهة إلى الشارع الرئيسي المؤدي إلى قلب مدينة سان انطونيو. لقد بقيت تسير بثبات منذ الفجر حتى حلول الظلام، وذلك طوال يومين كاملين ما جعلها مرهقة تماماً، ولكن ذلك لم يؤثر على حماسها.

غداً سترى ابنتها. الطفلة التي حملتها في أحشائها تسعة أشهر. الإبنة التي تنادي امرأة أخرى ماما. لن يكون بإمكانها قط المطالبة بها، كانت تعلم ذلك، ولكنها منذ الآن وإلى نهاية حياتها ستعلم من هي ابنتها، وأين توجد. وكان علمها بمكانها حين يستبد بها الشوق إلى رؤيتها، كان هذا أعظم مما تستطيع مقاومته.

لم تكن تامارا قد ذهبت قط إلى سان انطونيو من قبل. ولكن موظف مكتب السفريات أعطاها خرائط لها. وكان الطريق مؤشراً عليه من طريق السيارات إلى منطقة كينغ ويليام في المدينة. كما أن الموظف قد زوّدها بقائمة بأسماء الفنادق والنزل، فحجزت غرفة في أحد تلك القصور العديدة في المنطقة والتي تحوّلت إلى نزل للنوم مع الإفطار.

كانت قررت الذهاب إلى هناك أولاً، حيث تمضي ليلة تنام فيها جيداً قبل أن تبدأ بالبحث عن منزل راتلدج. ولكن يديها لم تطاوعاها في عدم الالتفاف حول

المنعطف الأيمن لكي تتوجه رأساً، بدلاً من ذلك، إلى المنزل المنشود.

وبينما كانت تسير ببطء، ناظرة إلى الشوارع وأرقام المنازل، علمت بالسبب الذي جعل هذه الأبنية الشامخة تلقب بـ القصور. فالبيوت القديمة الجميلة، رغم أنها ليست باتساع وفخامة القصور، إلا أنها واسعة بالنسبة إلى بيوت هذه الأيام كما يغلب عليها طراز الهندسة الإيطالية والقوطية، ومبنية من الحجر والخشب والقرميد وقائمة في أراضٍ فسيحة تظللها أشجار السنديان والاتس العتيقة.

شعرت تامارا بالسرور إذ تعيش ابنتها في هذه المنطقة التاريخية الثرية من المدينة، صحيح أن المال لا يضمن السعادة، ولكن من يملكه لا يشعر بالحرمان من ضروريات أو كماليات الحياة.

ولم يستغرق عثورها على الشارع الذي تبغيه سوى دقائق قليلة، كما كان البيت المنشود هو الثالث فيه، كان هذا المنزل ذو الطابقين والمبني من الحجر الكلسي، نموذجاً صادقاً للطراز القوطي الهندسي.

لاحظت أن الباب الأمامي الكبير كان محفوراً من خشب السنديان الثقيل، وأن سياجاً مؤلفاً من أوتاد بيضاء تحيط بالقسم الأمامي من الأرض.

اجتازت تامارا بسيارتها المنزل إلى نهاية المبنى، ثم استدارت راجعة إلى الحديقة العامة في الناحية الأخرى من الشارع حيث تتمكن من النظر إلى المنزل دون أن يلحظها أحد. لم تكن هناك سيارات على طول الشارع، ولكن كان هناك كاراج ملحقاً بالمنزل إلى الناحية

الشمالية من السياج يسع سيارتين على الأقل. لو كانت الأسرة في المنزل، لكانت سيارتاهما في داخله على الأغلب.

جلست بعض الوقت تراقب المكان والمنطقة. ولكنها لم تر أثراً للسكان. وشعرت بألم لطول ملازمتها المكان وإرهاق الرحلة التي قامت بها. وأخيراً، فكرت في أن من الأفضل لها أن تذهب إلى النزل الذي حجزت فيه الغرفة لتسجل اسمها قبل أن تؤجر الغرفة لأحد آخر.

وجدت النزل على بعد عدة مبانٍ فقط من منزل راتلدج ولم يكن فيه ما يشير إلى أنه حوّل من مكان للسكن إلى نزل للتأجير. فقد بدا كأيّ منزل آخر في المنطقة. كان بناءً من الخشب مؤلفاً من ثلاث طبقات وشرفة أرضية تلتف حوله، وقد طلي بلون أبيض رمادي الحواشي، وكان أثاثه جميل قديم الطراز. وقد أعطيت غرفة في الطابق الثاني تطل على الحدائق الخلفية.

رفضت دعوة المشرفة على النزل للانضمام إلى بقية النزلاء في غرفة الجلوس في الطابق الأسفل وذلك لتناول القهوة أو الشاي، وفضلت أن تأوي إلى فراشها حيث استغرقت في النوم على الفور.

استيقظت تامارا في الصباح التالي شاعرة بالانتعاش والرغبة في متابعة تحرياتها. وعندما بدّلت ثيابها، كانت قد قررت الخطة التي كانت تفكر فيها وهي في طريقها من مدينتها ايمس.

بعد تناولها طعام الإفطار في غرفة الطعام، حيث الفطائر كانت صنع البيت، سألت المشرفة عما إذا كانت المدارس قد

ابتدأت عطلتها الصيفية، وكان سرورها بالغاً وهذه تخبرها أن العطلة ستكون بعد أسبوع.

وبالرجوع إلى خريطة المدينة مرة أخرى، وجدت أكاديمية ميشين ترايل وهي المدرسة الخاصة التي تتعلم فيها ماري فرانسيز. كانت المدرسة عبارة عن بناء عصري ضخم ذي ممرات عديدة وزجاج كثير، وملعب واسع. شعرت تامارا بالاضطراب وهي تنزل من السيارة، إنها سترى ابنتها المفقودة من زمن طويل وذلك في غضون دقائق قليلة.

أخذت نفساً طويلاً، ثم فتحت باب المدرسة ودخلت، قدمت نفسها كمعلمة أثناء العطل المدرسية، ثم طلبت رؤية مديرة المدرسة. وكان الحظ معها حيث أدخلت إلى مكتب داخلي وقدمت إلى امرأة بهية المظهر في منتصف العمر تدعى السيدة اوكزنبرغ.

حيتها المديرة من خلف مكتبها: «أهلاً وسهلاً يا آنسة هاوستون، تفضلي بالجلوس. بماذا يمكنني أن أساعدك؟»

جلست تامارا على كرسي أمامها وقالت باسمة: «إنني معلمة الصف الثاني في المدارس الرسمية في ايمس، ولاية ايوا. وكذلك أدرس لنيل درجة الماجستير. وموضوع أطروحتي هو الكتابة عن المناهج الدراسية والأساليب الجديدة التي تسير عليها المدارس الخاصة في مختلف أنحاء البلاد، وهكذا أستغل عطلتي الصيفية في القيام ببعض الرحلات والأبحاث في نفس الوقت.»

فقالت السيدة أوكزنبرغ: «يا لها من فكرة رائعة، إذ

تستغلين عطلتك الصيفية في العمل للحصول على درجة أعلى. إنني أهنئك لتكريسك نفسك لمهنتك.»

شعرت تامارا بالخجل والارتباك. ومع أنها قد صممت فعلاً على نيل درجة الماجستير في النهاية، إلا أنها لم تبدأ بها بعد، وكرهت أن تكذب على هذه السيدة الطيبة، ولكن هذه كانت الوسيلة الوحيدة التي وجدتها لكي تحصل على إذن بمراقبة غرفة صف ماري فرانسيز راتلدج.

نحّت شعورها بالذنب جانباً، ثم تابعت تقول: «آه، أشكرك، ولكنني أستمتع بكل دقيقة في هذا العمل. شاكرة لك جداً لو أنك سمحت لي بأن أتحدث إلى معلمة الصف الثاني وأراقب سير طريقة التدريس في الصف، وأنا أعد بأن لا أقاطع الدرس أو أقحم نفسي فيه بأيّ شكل كان.»

حبست تامارا أنفاسها وهي ترى المديرة تتردد قليلاً قبل أن تجيب قائلة: «عليّ أن أرى بطاقة إثبات شخصيتك أولاً. وهذا احتياط ضروري كما تعلمين. وبعد ذلك ليس لدي مانع من هذا، ولكن طبعاً بعد موافقة المعلمة. هل تريدين القيام بذلك الآن؟»

فأجابت شاعرة بالارتياح: «نعم، إذا كان يمكن تدبير هذا الأمر. إنني أعلم أن الوقت قصير، ولكن...» وفتحت حقيبة يدها، ثم ناولت المرأة بطاقة رخصة القيادة بالإضافة إلى إجازة التعليم التي تذكرت إحضارها معها.

تفحصت المديرة المستندات ثم أعادتها إليها، قائلة: «إذا أنت انتظرت هنا، فسأتحدث إلى المعلمة.» ثم تركت الغرفة لتعود بعد عدة دقائق بخبر سار وهو قبول المعلمة، ثم

اتجهت بتامارا إلى غرفة صف مشرفة في الناحية الخلفية من المبنى.

عندما وصلتا إلى غرفة الصف، وجدتاها فارغة إلا من المعلمة والتي كانت امرأة جميلة بسن تامارا تقريباً قدمتها إليها المديرة باسم جيني لوبيري. فقالت وهي تعبس مازحة: «ادعيني جي.إل. إن أمي تحب الأسماء المزدوجة، فأخواتي اسماؤهن ماري الين، بيت آن وبيلي جو.» وضحكت: «بيلي جو هي الصغرى، وكان المفروض أنها صبي.»

ضحكت تامارا معها ما خفف شيئاً من اضطرابها.

قالت جي.إل: «إن الأطفال في فرصة الاستراحة، ولكنهم سيعودون بعد دقائق. أتريدين مراقبة صفي؟»

أومأت تامارا بالإيجاب ثم حدثتها بنفس القصة التي سبق وحدثت بها المديرة، مضيفة: «أعدك بألاّ أكون مزعجة. سأجلس فقط في الزاوية، وسينسى الأطفال وجودي.»

قالت المعلمة ضاحكة: «آه، كلا. إنك لن تقتصري على هذا. إنني أريد منك أن يكون لك حصة في التعليم.»

وفي هذه اللحظة تصاعد رنين الجرس، وبعد ذلك بلحظات اهتز البناء بضجيج العشرات من الأقدام الصغيرة تقرع أرض القاعة الإسمنت، وسرعان ما اندفعت مجموعة من الأطفال إلى الغرفة حيث توزعوا على كراسيهم.

تفحصتهم بسرعة. كانوا اثنتا عشرة فتاة وتسعة صبيان. كانت الفتيات متماثلات في اللباس الذي كان عبارة عن تنورة زرقاء بثنيات، وقمصان بيضاء، بينما

ملابس الصبيان كانت عبارة عن بنطلون قاتم اللون وقميص أبيض.

كان العدد صغيراً بالقياس إلى مجموعتها في صفها في المدرسة الرسمية والتي كانت ثلاثين تلميذاً، وشعرت بالحسد لجي. إل للوقت الزائد الذي بإمكانها أن تنفقه على كل تلميذ.

أي من هذه الفتيات كانت ماري فرانسيز؟ كانت أربع منهم أميركيات من أصل افريقي واثنتان كانتا شرقيتين ما جعل مجال الاختيار أمامها ضيقاً. هل سيكون بإمكانها أن تعرف ابنتها من بينهن؟

وقبل أن تستطيع التركيز على كل منهن على حدة، أمسكت المعلمة بيدها مستجلبة انتباههن، ثم قالت بعد أن ساد الهدوء بينهن: «أيها التلاميذ، لدينا هنا زائرة.» ونظرت إلى تامارا مشيرة إليها بالوقوف: «هذه هي الآنسة هاوستون. إنها معلمة في ولاية ايوا. هل بإمكان أي منكم أن يرينا على الخريطة أين تقع ايوا؟»

رفعت إحدى الفتيات يدها وكانت زرقاء العينين، وفكرت تامارا. أيمكن أن تكون هذه طفلتها؟ ولكن ليس لها، ولا لزوجها الراحل، عينان زرقاوان.

«حسناً، يا كاساندرا. دعينا نعرف مبلغ معلوماتك.»

كاساندرا؟ ليس هذا هو الإسم. كان واضحاً أن تلك الطفلة ليست ابنتها.

وفي الوقت الذي عادت فيه تامارا تنظر إلى الطفلة، كانت هذه قد أشارت إلى مكان ولاية إيوا على خريطة الولايات المتحدة المعلقة على الجدار، ثم عادت إلى مقعدها.

قالت المعلمة: «هذا حسن جداً يا كاساندرا. وفي غضون دقائق ستخبركم الآنسة هاوستون كل شيء عن إيوا. إنما الآن أريد من كل واحد منكم أن يقف ويخبرها باسمه. وسنبدأ بريكاردو.» وأومأت ناحية صبي اسباني قاتم الشعر كان يجلس في أول مقعد من الصف الأمامي.

عندما أخذت كل فتاة تقف بدورها، دار رأس تامارا. وحين وصلوا إلى صف المقاعد الثالث، أخذت تشعر بالاضطراب. ثم في وسط الصف وقفت فتاة صغيرة قاتمة الشعر. كانت أصغر حجماً من بقية الفتيات، وذات عينين واسعتين باستدارة هما نسخة طبق الأصل عن عيني تامارا: «اسمي فرانسي راتلدج.» قالت ذلك ثم عادت تجلس في مقعدها.

غامت المرئيات أمام عيني تامارا. وأدركتها الخشية، لحظة من أن يغمى عليها. ولكن حيث أن همهمة الأطفال استمرت، حاولت تمالك نفسها، وإلا فهي ستدمّر كل شيء إذا تركت لمشاعرها العنان.

فالمسؤولون في المدرسة لن يتسامحوا معها إذا هم علموا بأنها كذبت عليهم لكي تتمكن من الدخول، وإذا هم علموا بالحقيقة وهي أنها كانت تبحث عن إبنة راتلدج، فسيأمرون بالقبض عليها.

وهكذا أرغمت تامارا نفسها على أن تبعد نظراتها عن فرانسي الصغيرة كما سمّت نفسها، وتركز اهتمامها على المهمة التي بين يديها. إن المعلمة تريدها أن تتحدث إلى الأطفال عن ولاية إيوا، ولو أنها خذلتها في ذلك لحدث ما لا يحمد عقباه.

مرت الساعتان السابقتان للغداء بسرعة، فقد امتثلت تامارا لطلب جي.إل المعلمة بأن تعمل مع الأطفال كمساعدة لها. وكان هذا أمراً محبباً إذ أصبح بإمكانها أن تطلب من فرانسي الإجابة على بعض الأسئلة أو تلاوة قطعة ما. ولكن عليها أن تحرص على ألاّ تخص الطفلة باهتمامها من بين الآخرين فتجلب إليهما الانتباه.

تملك تامارا الحنين إلى أخذ الطفلة بين ذراعيها أو فقط تتخلل بأصابعها ذلك الشعر الحريري الأسود الذي يماثل لون شعرها. ولكنها استطاعت، بشكل ما، أن تبقى بعيدة عنها راضية بمجرد النظر إليها وسماع صوتها الطفولي الحلو ذي اللكنة المحلية لأهالي تكساس.

عندما قرع جرس الغداء، تاقت نفس تامارا إلى الانضمام إلى الأطفال في الكافتريا والتحدث مع فرانسي أثناء تناول هذه، لطعامها، ولكن الوقت الممنوح لها كان ينتهي عند الظهر ولم تجرؤ على طلب التمديد. وبدلاً من ذلك، شكرت الأطفال مجتمعين لسماحهم لها بقضاء الصباح معهم، ثم ودعت المعلمة جي.إل والمديرة السيدة أوكزنبرغ، ثم غادرت المكان وهي تعلم أنها لم تعرف بعد عن ابنتها كل شيء.

عادت تامارا إلى النزل، ومن ثم اتصلت هاتفياً بمكتب الدكتور كلايتون راتلدج لجراحة الأسنان. وعندما سمعت رنين الهاتف في الطرف الآخر، أخذت يداها ترتجفان. واستمر الرنين إلى أن خطر لها أن المكتب ربما كان مغلقاً بسبب فرصة الغداء. كان عليها أن تنتبه إلى هذا الأمر من قبل.

كانت على وشك الاقفال، عندما رفعت السماعة في الطرف الآخر وسمعت صوتاً يقول لاهثاً: «هنا مكتب الدكتور راتلدج.»

تنهدت تامارا بارتياح وهي تجيب: «إنني تامارا هاوستون.» وتابعت القصة التي سبق وقررتها في ذهنها: «إنني أمضي إجازة في سان انطونيو وأشعر بألم في ضرسي. إنني أريد الحصول على موعد لرؤية الدكتور راتلدج وذلك في أسرع وقت ممكن.»

فقال الصوت: «إن الدكتور راتلدج جراح ونحن لا نعمل إلا مع المرضى المحوّلين إلينا. بإمكاني إذا شئت، أن أعطيك رقم مؤسسة علاج الأسنان...»

لم تشأ الاستسلام، فقالت: «كلا، إن الضرس الذي يؤلمني هو ضرس العقل، وكان طبيبي في موطني قد أخبرني أنه يستوجب الخلع، ولكن لا بد أن يقوم بذلك جراح أسنان.» كان كل ما قالته صحيحاً ما عدا أن الضرس لم يكن يؤلمها.

ولم يظهر في لهجة موظفة الاستقبال القبول وهي تقول مترددة: «حسناً... أنا...»

فأسرعت تامارا تقول: «إنني معلمة وقد عملت هذا الصباح كمساعدة في الصف الثاني من مدرسة ميشين ترايل. وقد ذكرت ألم ضرسي هذا لإحدى الموظفات هناك، فقالت إن والد فرانسيز راتلدج هو طبيب أسنان وقد يتمكن من مساعدتي.»

«آه، هل تعرفين إبنة الدكتور؟»

«حسناً، ليس تماماً. ولكنها كانت إحدى التلميذات

اللاتي قمت بتعليمهن. إنها فتاة رائعة الجمال وذكية أيضاً. سأكون شاكرة له لو أنه قبل أن يراني، إذ أن الضرس إذا لم أعالجه من الآن حتى الغد، فسأتألم طوال العطلة الأسبوعية...» وسكتت آملة أن تستدر عطف المرأة.

مضت لحظة صمت قالت المرأة بعدها: «إن هناك إلغاء موعد غداً الساعة العاشرة. ولدينا مرضى ينتظرون ولكن إذا كانت حالتك طارئة...»

فقاطعتها تامارا: «آه... أرجوك. سأكون شاكرة جداً فهو يؤلمني حقاً.»

فترددت الموظفة مرة أخرى ولكنها عادت فتكلمت بصوت حازم: «لا بأس، يا آنسة هاوستون. إننا لا نريد أن يفسد ألم الضرس عطلتك في مدينتنا. فإذا تمكنت من القدوم إلى هنا غداً الساعة العاشرة...»

«آه، طبعاً سأحضر.» ولم تستطع أن تمنع رنة الفرح في في صوتها. كان هذا الموعد مع والد إبنتها بالحضانة شيئاً بالغ الأهمية بالنسبة إليها. وشكرت الموظفة عدة مرات قبل أن تقفل الهاتف.

استيقظت تامارا باكراً في الصباح التالي، وبعد أن تناولت طعام الإفطار قادت سيارتها باتجاه منزل راتلدج حيث أوقفتها عبر الشارع، مرة أخرى، ثم انتظرت. كانت تأمل في أن تلقي نظرة على الطفلة ووالديها عند ذهابها إلى المدرسة.

وفي الساعة السابعة والنصف، كوفئت على صبرها عندما وقفت حافلة مدرسية أمام البيت، فخرجت فرانسيز برفقة امرأة بدينة معدومة الجمال. لا يمكن أن تكون تلك

المرأة أليسيا راتلدج. فهي كبيرة في السن، فقد كانت تبدو في الخمسين من عمرها على الأقل.

سارت المرأة إلى الحافلة ممسكة بيد الطفلة، ووقفت هناك إلى أن صعدت فرانسيز واتخذت مقعدها. أغلق الباب وسارت الحافلة إلى أن توارت في المنعطف. عند ذلك فقط استدارت المرأة وعادت تدخل المنزل.

إذن، فمدرسة ميشين ترايل تأخذ تلامذتها بالحافلة، وربما هذه المرأة هي موظفة للعناية بالطفلة أثناء ذهاب والديها للعمل.

بعد ذلك بوقت قصير، فتح باب الكاراج وخرجت منه سيارة كاديلاك سوداء لامعة مبتعدة نحو الشارع. كانت نوافذها معتّمة ما منع تامارا من رؤية من بداخلها.

وصلت تامارا إلى مكتب عيادة طب الأسنان قبل الوقت المحدد، ومع هذا فقد كانت غرفة الانتظار مزدحمة. وعند وصولها أخبروها بأن الدكتور تلقى حالة طارئة منذ فترة ولهذا فقد تأخرت المواعيد.

سلمتها موظفة الاستقبال استمارة طبية لتملأها بمعلومات شخصية وطبية. وبعد أن أجابت على كل الأسئلة أعادتها إلى الموظفة ثم عادت إلى مقعدها.

بعد حوالى العشر دقائق، استدعي مريض آخر إلى غرفة العمليات. وعندما ألقت نظرة في أنحاء الغرفة إلى عدد الأشخاص الذين ما زالوا في الانتظار، قررت أن تستغل هذا الوقت بالإستعلام عن طبيب الأسنان هذا قدر ما أمكنها. فاستدارت إلى امرأة مسنة إلى يسارها كانت قد ابتسمت لها عند جلوسها. مالت نحوها تامارا وتمتمت تقول: «عفواً،

ولكنني كنت أتساءل... هل سبق وعالجك دكتور راتلدج من قبل؟»

فعادت المرأة تبتسم: «آه، نعم. لقد اشتغل بأسناني كثيراً، في المدة الأخيرة. كان الأمر مزعجاً لي تماماً، ولكن ذلك أفضل من وضع أسنان صناعية.»

«إنها المرة الأولى التي أحضر فيها إلى هنا، وأنا أشعر بشيء من الخوف. هل هو رقيق؟ أعني ألن يؤلمني؟»

«آه، كلا. إنه في غاية الرقة. إنه أكثر حذراً من أكثر أطباء الأسنان. إنني أعرف ذلك لأنه في السنة الماضية تعطل عن العمل شهراً كاملاً بعد وفاة زوجته مما اضطرني للذهاب إلى طبيب آخر...»

فتملك الذهول تامارا. زوجته ماتت... ولكن متى؟ وكيف؟ وكيف لم يذكر بول والاس هذا في تقريره؟

ولكن بول، طبعاً لم يكن يتحرى عن الوفيات.

استمرت المرأة في الكلام، ولكن تامارا لم تكن تستمع إلى ما كانت تقوله.

إذن، فماري فرانسيز ليس لديها أم. كيف كان تأثير هذا عليها؟ وكيف كان تأثيره على أبيها. وهل هو يعرف كيف يرعى فتاة صغيرة؟

فتح الباب وبرزت منه مساعدة الدكتور تشير إلى أحد المرضى ما جعل نظرات تامارا تتحول مجدداً إلى المرأة التي إلى جانبها، والتي كانت قد كفت عن الحديث وأخذت تنظر إلى تامارا باستغراب، فقالت هذه: «إني آسفة، فقد كان ذهني مشتتاً. هل قلت إن الدكتور راتلدج هو أرمل؟»

فأومأت المرأة تجيب: «نعم، ويا لها من مأساة. فقد ذكرت هذا الصحف والتلفزيون. إنها من آل كونراد وأسرتها هي من الرواد الأوائل الذين استقروا في منطقة كينغ ويليام في المدينة. لقد أنشأوا ثروتهم من المطاحن. قد تكونين سمعت عن مطاحن كونراد...»

«ولكن ماذا حدث لها؟» صرخت تامارا بهذا محاولة أن تخفي من صوتها ما بدا فيه من فروغ صبر، على كل حال، من أين للمرأة المسكينة أن تدرك مبلغ أهمية هذا بالنسبة إليها؟

«كان حادثاً مؤسفاً، كانت مهندسة، وكانت في ورشة بناء كان يقام فيها أحد أبنيتها، لا أدري ما حدث بالضبط ولكن الآلة الرافعة أصابها خلل ما، فصدمتها ولم تعش سوى ساعات قليلة بعد أن نقلت إلى المستشفى.»

فارتجفت تامارا لبشاعة ما حدث.

تابعت المرأة: «كان الدكتور شديد الحزن، ولم يأت إلى عيادته إلا بعد أكثر من شهر، والحزن ما زال يبدو عليه إلى هذا الحين. لقد اعتاد أن يضحك ويمزح مع مرضاه، ولكنه لم يعد كذلك. نعم، إنه ما زال ودوداً، ولكن بإمكان المرء أن يشعر بأنه ما زال متألماً.»

غمر تامارا فيض من العطف نحو الرجل، ولكن أول ما تبادر إلى ذهنها هو ابنتها، فسألت المرأة: «هل لديه أولاد؟»

«عنده بنت واحدة. إنها فتاة صغيرة جميلة جداً.»

فحملقت تامارا فيها: «هل تعرفينها؟»

فهزت المرأة رأسها: «كلا، لم أرها قط شخصياً. ولكنه

يضع صورها في جميع أنحاء عيادته، ويغيرها بأحدث منها كل بضعة أشهر، من الواضح أنه يحبها جداً.»

وقبل أن تعلق تامارا بشيء، فتح باب العيادة وأطلت المساعدة ناطقة بأحد الأسماء وإذا بالمرأة تنهض قائلة: «هذا اسمي.» ثم تبعت المساعدة.

انتظرت تامارا نصف ساعة أخرى قبل أن تدعى للدخول. كان ما أخبرتها به المرأة صحيحاً. فقد كانت صور ماري فرانسيز في مختلف الأوضاع منظمة على جدار واحد. وتمنت تامارا لو تحصل على صورة منها مهما كان الثمن.

أجلستها المساعدة على الكرسي المستطيل، وهي تقول: «فهمت أنك حالة مستعجلة. هل ما زال الضرس يؤلمك؟» ولم تكن تامارا، بالطبع، ترغب في خلع ضرسها دون سبب، ولهذا اعترفت بأنه لا يؤلمها حالياً، وقالت بارتباك: «أشعر بأنني غبية إذ ألححت بطلب موعد مع الدكتور، ولكن يبدو أنني عضضت على شيء بشكل خاطىء. ولكن، ما دمت أصبحت هنا أرجو أن يلقي الدكتور نظرة على الضرس على كل حال. إذ ربما كان هناك صدع فيه.»

فبدا الضيق على المساعدة، ولكنها قالت: «إذن، فما زال علينا أن نأخذ له صورة بالأشعة.» ثم سترتها بغطاء واقٍ بعد أن حشرت في فمها فيلم.

وعندما انتهى هذا الأمر المزعج، خفضت المساعدة الكرسي الذي كانت تامارا جالسة عليه، معلنة أن الدكتور سيكون معها بعد دقائق معدودات. ثم تركتها وشعرت تامارا بالإنزعاج لما كان عليها أن تعانيه من الانتظار مرة أخرى،

ولكن صوت رجل من خلفها جعلها تقفز من مكانها: «هل الضرس يؤلمك؟ فهمت من بلانش أن الألم توقف.»

ارتفعت نظرات تامارا لتتعلقا بعينين يشع منهما الحزن، لا بد أنه كان يبدو صبياني الشكل قبل أن تنطبع عليه المأساة بشكل خطوط من الألم حول عينيه وفمه، ومع أنها كانت تعلم أنه ما زال في أواخر الثلاثينات من عمره، فقد دب البياض في سالفيه.

كان رجلاً يتألم.

كبحت هذه الافكار التي فاجأتها، والتي لم تكن معقولة. فهو رجل غريب عنها، ولا يهمها منه سوى علاقته بابنتها. وازدرت ريقها وهي تجيبه قائلة: «كلا... أعني نعم...» وعادت تزدرد ريقها لتعود فتقول: «أنا آسفة. أعني كلا، لا أشعر بألم ونعم، لقد ذهب ألم الضرس.»

فبدت على شفتيه ابتسامة ولكنها لم تذهب بالحزن الذي في عينيه. وقال بلطف: «إنني أنا الآسف. فأنا عادة أحاول أن أرى الأشخاص الذين ما يزالون على أقدامهم قبل أن يلتصقوا بذلك الكرسي، ولكننا اليوم غارقون في العمل. إنني الدكتور راتلدج، وحسب ملفك، أنت... تامارا هاوستون؟» وعندما نظر إليها استحال الهدوء في ملامحه إلى الحيرة: «هل سبق وعالجتك من قبل؟ إن وجهك مألوف لديّ.»

سؤاله بعث الحذر في نفسها. هل يرى فيها فرانسيز؟ فهما متشابهتان تماماً.

فأسرعت تطمئنه: «كلا، فأنا لم أحضر إلى سان أنطونيو قط من قبل، فقد عشت طيلة حياتي في ولاية إيوا، وأنا هنا

في إجازة فقط وبعد أن ألححت على موظفة الاستقبال عندك لتعطيني موعداً معك، إذا بالألم يتلاشى.»

تناول قفازين طبيين أدخل فيهما يديه وهو يقول: «حسناً، سألقي نظرة لأرى إن كان ثمة مشكلة. إذن فأنت فقط أخذت اسمي من دليل الهاتف؟»

مضت لحظات استجمعت فيها أفكارها قبل أن تجيب قائلة: «آه، كلا فأنا معلمة. وكنت أمس أقوم بزيارة مدرسة إبنتك وذلك كجزء من مشروع أبحاث أعمل فيه، وكان هناك من نصحني باللجوء إليك.»

لم تبد عليه الدهشة، وإنما أومأ فقط وهو يقول: «لقد أخبرتني فرانسي بمجيء مساعدة معلمة صباح أمس. هل ستمضين وقتاً طويلاً في سان أنطونيو؟» ثم استدار بخفة يتناول بعض الآلات من على الصينية.

فقالت وهي تعني كل كلمة تقولها: «ليس بالقدر الذي أحب أن أمضيه فعلاً. فهي مدينة قديمة رائعة، ويمكنني أن أمضي طوال الصيف هنا إذا استطعت أن أحصل على عمل موقت.»

ثم فحص الضرس بالآلات وهو يقول مازحاً: «إذا كنت تريدين عملاً فعلاً، فأنا بحاجة ماسة إلى مدبرة منزل.»

تملك تامارا الذهول، إذا كان جاداً في كلامه فهذا معناه أنه جعل لها سبيلاً للمشاركة في تربية ابنتها، موقتاً على الأقل. وقد تتمكن بعد ذلك إذا كانت ذكية، من اقناعه بأن يجعل وظيفتها تلك دائمة، ولحسن الحظ، كان فمها مليئاً بالآلات ما منعها من الكلام. وهذا أرغمها على التفكير أولاً.

يجب ألاّ تبدو عليها اللهفة للقبول. والأفضل أن تمثل دورها ببرود، فتمزح قليلاً بالنسبة للموضوع قبل أن تعلمه بقبولها للوظيفة. فقالت بمرح بعد أن أخرج الآلات من فمها: «اسمع، ربما آخذ هذا الموضوع جدياً. فهو يبدو وظيفة صيفية ممتازة.»

فبدا عليه شيء من الدهشة ثم قهقه ضاحكاً: «لا تكوني واثقة من هذا تماماً. فبإمكان ابنتي ذات الوجه الحلو البريء أن تكون شقية صغيرة إذا هي شاءت.»

ضحكت تامارا: «لا أصدق هذا. فأنا لم أر من قبل طفلة بمثل تأدبها.»

فأومأ برزانة: «نعم، إن سلوكها جيد. فقد كانت أمها تصر على تنشئتها كذلك، لقد كانت دوماً تقول ان لا عذر للولد بأن يكون سيء الأدب. لقد علّمت فرانسي جيداً.»

كان في لهجته أسف واضح، ومرة أخرى تدفقت مشاعرها. ولكنها أخذت تتمالك نفسها تدريجياً، وعندما أجابته تعمدت أن تتكلم بصيغة المضارع: «أتمنى، بصفتي معلمة، أن تكون هناك كثيرات من الأمهات مثل زوجتك، فهي تقدم إلى ابنتها هدية لا تثمن وذلك بتعليمها أن تكون مهذبة مع الآخرين.»

رأت تامارا المحة الألم التي مرّت على ملامحه: «نعم، لقد كانت زوجة وأماً محبة، ولكنها... ماتت السنة الماضية، وأنا أجد صعوبة في أن أكون حازماً مع فرانسي. فهي تفتقد أمها كثيراً.»

كان ما شعرت به من عطف عليه، بالغاً فقد كان

واضحاً أنه ما زال يشعر بصعوبة في التحدث عن موت زوجته.

قالت بصوت حاولت جعله خالياً من العطف: «إني آسفة. لا بد أن الأمر صعب بالنسبة لكليكما. هل هذا هو السبب في أنك تريد مدبرة منزل؟»

كانت تعلم أنها قد تجاوزت حدها، إذ تلقي بأسئلة عن أشياء لا تخصها، ولكن كانت هذه هي فرصتها الوحيدة لتحصل على المعلومات التي تريدها.

قال بإيجاز: «جزئياً. إن مدبرة منزلنا الحالية كانت عملت عند أسرة زوجتي سنوات كثيرة، ومعنا منذ زواجنا ولكنها وصلت إلى سن التقاعد الآن. وكان موت أليسيا صدمة لها لم تشف منها حتى الآن. وقد نصحها الطبيب بأن تتقاعد وتبتعد عن هذا المكان وتعيش بقرب ابنتها واحفادها في ولاية نيو مكسيكو.»

فقالت: «إنها نصيحة طيبة، وأظنها اقتنعت بها.»

وعاد يتفحص الضرس وما حوله مرة أخرى، ثم أجاب: «نعم، وهي ستتركنا حالما تبدأ العطلة المدرسية في الأسبوع القادم. لم أكن أتوقع أن أجد مثل هذه الصعوبة في العثور على بديلة لها، ولكنني سرعان ما اكتشفت أنني أعيش في عالم غريب حيث لم يعد ثمة أثر لموظفين من نوع هيرتا. لقد كانت دوماً فرداً من أسرتنا. وحتى الآن لم أعثر على واحدة أثق بها إلى حد السماح لها بأن تكون بمثابة أم لابنتي.»

وشعرت تامارا بارتياح بالغ إذ ترى مبلغ اهتمامه بالعثور على المرأة المناسبة للعناية بفرانسي. كما أن هذا

يسهّل عليها أمر إقناعه بتسليمها هذه الوظيفة أثناء الصيف حيث أنها مؤهلة تماماً. فهي معلّمة، وتحب الأطفال وخصوصاً فرانسي.

قالت: «إنني لم أكن أمزح يا دكتور راتلدج عندما قلت إن هذه الوظيفة قد تصلح لي. فقد خلبت سان انطونيو لبي وأتمنى لو أمضي الصيف هنا. إنني غير متزوجة وليس لي أية علاقات أسرية أو غيرها، إنني لا أدعي أنني أفضل طاهية أو مدبرة منزل في العالم، ولكنني معلمة ولديّ خبرة سنتين في التعامل مع الأولاد، وملفي نظيف مما يشين.»

فأجفل قائلاً: «هل أنت جادة في ما تقولين؟»

«أنا جادة طبعاً. لقد اعتدت أخذ وظائف موقتة في مدينتي ايمس أثناء فصول الصيف لكي أزيد من دخلي، ولكنني لم أجد وظيفة بعد لهذا الصيف. إن بإمكاني أن أعمل لديك إلى أن تجد مدبرة منزل تناسبك.»

الفصل الثالث

دخلت مساعدة الدكتور حاملة مغلفاً سلمته إليه، فخلع قفازيه وفتحه، وهو يشير إليها بالخروج، ثم أخرج صورة الأشعة، وتحول عن تامارا ليضعها على الشاشة الضوئية حيث أخذ يفحصها، بينما هي تنتظر بقلق.

أتراه سيتجاهل طلبها للعمل دون أن يعبأ حتى بإجابتها؟ أتراها أخطأت حين أسرعت بقبول العمل؟ أتراه يظنها مجرد طالبة عمل تقول أو تعمل أي شيء في سبيل الحصول على وظيفة مريحة عند أسرة غنية يمكنها أثناءها أن تسرق أياً من مقتنياتها الثمينة؟

كانت على وشك أن تصرخ يأساً عندما استدار عائداً إليها. «لا يبدو في هذه الصورة أي سبب لألم ضرسك هذا، فليس ثمة إلتهاب أو تسوس، كما أن الضرس غير مصدوع ولكن اصطدام الأسنان ببعضها البعض يمكن أن يسبب مشاكل.» كان يتكلم وكأن هذا هو الموضوع الوحيد بينهما، ثم تقدم ليضغط على زر في كرسيها جعلها في وضع الجلوس. «وقد لا يزعجك مرة أخرى في المستقبل القريب، ولكنني انصحك برؤية طبيب اسنانك عندما تعودين إلى موطنك لكي يخلعه.»

خافت تامارا. إنه سيرفضها إذن من دون أن يرد عليها بجواب. ما الذي عليها أن تفعله الآن؟ فاذا هي

جادلته أو توسلت إليه، فإن ذلك سيقوي من شكوكه في أنها معتوهة. وبينما أخذت تحاول الخروج من هذا الضباب الذي غلف ذهنها، مد هو يده يفك إزاره الأبيض ويلقي به جانباً، ثم يقول باسماً: «آه، أما بالنسبة إلى وظيفة مدبرة المنزل، فإذا كنت تريدينها حقاً، فاتركي عند موظفة الاستقبال أسماء وعناوين وأرقام هواتف ثلاثة أشخاص يعرفونك، وذلك قبل ذهابك، سأدرسها ثم أعود إليك بالجواب حالاً.»

كان حسناً أن أسرع بالإبتعاد عنها، إذ ماذا كان سيظن وهو يرى البهجة العارمة التي أضاءت وجهها؟

• • •

لم تغادر النزل طوال عطلة نهاية الأسبوع خوفاً من أن يفوتها الإتصال الهاتفي من الدكتور راتلدج. لقد كانت قدمت إليه أسماء ثلاثة مراجع يعرفونها هم مدير المدرسة التي تعمل فيها ومعلمة زميلة لها واستاذها المفضل من الجامعة عندما كانت دوماً من الخمسة الأوائل في صفها.

كان القلق يتملكها وهي تجلس بجانب الهاتف في المكتبة، عندما تصاعد رنينه رفعت السماعة على الفور.

كان المتكلم هو كلايتون راتلدج والذي دخل في الموضوع مباشرة. «لقد راجعت الأشخاص الذين وضعت أسماءهم، وكانوا ممتازين، فإذا كنت ماتزالين مهتمة بالوظيفة هذه، فأنا أريدك أن تأتي إلى منزلنا غداً مساء لتناول العشاء، وذلك للمزيد من التعارف بيننا وذلك قبل أن نقوم بأي اتفاق بيننا، هل لديك وقت؟»

هل لديها وقت؟ وهل لديها غيره يشغل وقتها؟ ولكنها طبعاً لم تخبره بذلك بهذا الشكل.

في المساء التالي، اختارت تامارا ثيابها بعناية من الملابس القليلة التي كانت احضرتها معها. وصلت إلى منزل راتلدج في الساعة السابعة تماماً حسب الموعد. وشعرت بالاضطراب وهي تصعد الدرجات إلى الباب الامامي ثم تقرع الجرس. كل ما كان يشغل ذهنها هو انها سترى طفلتها مرة اخرى. ولكن ما ضايقها ايضاً، هو سرورها لرؤية والد فرانسي مرة أخرى.

لو كان الامر فقط لأنها كانت تأمل في ان تحصل على تلك الوظيفة الصيفية، فهي لذلك تريد ان تحدث لديهم انطباعاً جيداً عنها، لو كان هذا هو الامر، لما اهتمت، ولكن هذا لم يكن صحيحاً. كان ثمة، شيء ما بالنسبة لذلك الرجل الذي شغل أفكارها، وكان شيئاً خطيراً. وقبل ان تصل في افكارها إلى قرار، اذا بالباب يفتح ويقف امامها بنفسه.

ابتسم لها وهو يتراجع قائلاً: «ان مواعيدك مضبوطة تماماً. تفضلي بالدخول.»

أجابت بشيء من الارتباك: «اشكرك.» ثم دخلت إلى ردهة واسعة مبلطة بالقرميد، وتتدلى من سقفها ثريات رائعة من البلور، هذا إلى سلالم فخمة.

قال بصوت يماثل صوتها ارتباكاً: «سيكون العشاء جاهزاً خلال دقائق.» كان جلياً انهما، هما الاثنين، مضطربان. وكان يتابع قائلاً: «إبنتي، ماري فرانسيز، تنتظر في غرفة الجلوس. هل نذهب لنجلس معها؟»

أجابت باندفاع: «بالتأكيد.» وتبعته إلى غرفة فسيحة

إلى اليمين تسع طقمين من الأثاث بكل سهولة، وكانت فرانسي تقف منتظرة بصبر أمام مدفأة رخامية رائعة.

كانت تبدو كأميرة صغيرة مرتدية ثوباً وردي اللون مزخرفاً بالتخاريم بينما شعرها الجعد يتهدل حول كتفيها. وأشرق وجهها بابتسامة عندما دخلت تامارا وأبوها الغرفة.

قالت بفرح وهي تتقدم إليهما بسرعة: «مرحباً، يا آنسة هاوستون. قال أبي إنك ستحضرين للعشاء معنا، وأنك ستعلّمينا في المدرسة مرة أخرى.»

ودون وعي منها، انحنت تامارا لتصبح موازية للطفلة التي كانت قصيرة بالنسبة لسنها كما هي تامارا بالضبط.

«كلا، يا فرانسي، أنا لن أفعل ذلك. إن المدرسة في ايوا حيث أعلّم قد أقفلت للعطلة الصيفية وأنا الآن في إجازة. كنت أزور مدرستك فقط.»

كان الدكتور راتلدج واقفاً بجانبهما، فقال: «لماذا لا تجلسين وتتحدثين إلى فرانسي، بينما أذهب أنا وأخبر هيرتا بأنك هنا وأن بإمكانها تقديم العشاء في أي وقت؟»

جلست تامارا على الأريكة بينما ابتعد هو. وتبعتها فرانسي وجلست بجانبها ما جعل نفس تامارا تفيض بهجة. وجاهدت نفسها لكي لا تمدّ ذراعيها تحتضنها خوفاً من أن تفزعها بإظهار مثل هذا الشوق العارم.

أجالت نظراتها حولها بحثاً عن شيء تقوله: «إذن يا فرانسي، هل أنت مسرورة لحلول العطلة المدرسية؟»

لوت الفتاة الصغيرة وجهها: «نعم، أظن ذلك ولكنني لا أحب الذهاب إلى المزرعة.»

أجفلت تامارا: «المزرعة؟»

«مزرعة جدي وجدتي. قال أبي اننا إذا لم نجد مدبرة منزل قبل أن تقفل المدرسة، فسنمضي الصيف في المزرعة. ولكنني أحب أن أبقى هنا، فليس هناك من ألعب معه.»

إذن، فهذا هو السبب في لهفته إلى العثور على مدبرة منزل. فعندما ترحل مدبرة المنزل الحاضرة، لن يكون هناك أحد مع فرانسي في البيت ليعتني بها، وقبل أن تتمكن من الإجابة، عاد الدكتور راتلدج فقفزت فرانسي وركضت إليه فأمسكها من يدها قبل أن يجلس على كرسي.

لقد أشرق وجهه بابتسامة امتدت إلى عينيه. كان واضحاً أنه شغوف بابنته، من كل قلبه. وشعرت تامارا بالارتياح وقد خفف هذا شيئاً من شعورها بالذنب الذي تملكها منذ تخلت عن طفلتها.

سأل فرانسي بزهو ملحوظ: «هل أخبرت الآنسة هاوستون ماذا حدث في المدرسة اليوم؟»

فأعلنت قائلة وقد بدت عليها السعادة: «جئت الأولى في كل المواد.»

شعرت تامارا بفيض من الزهو، هي أيضاً فقالت بحماس: «ما أعظم هذا، ولكنني غير مستغربة، لأنني واثقة من أنك تحصلين دوماً على العلامات الأولى.»

«لقد حصلت على العلامة الثانية في المرة السابقة.»

ضحكت تامارا: «حسناً، ليس هناك علامات متكاملة

طوال الوقت.» وتحوّلت إلى الدكتور راتلدج قائلة: «فهمت أن المدرسة لن تقفل قبل أواخر الأسبوع.»

فأومأ مجيباً: «هذا صحيح، ولكن مدرسة ميشين ترايل تبكّر في توزيع الشهادات عدة أيام لكي يسهل التداول مع أية مشاكل أو اعتراضات يتقدم بها الآباء بالنسبة إلى الدرجات.» وفي هذه اللحظة برزت امرأة متوسطة السن تعلن أن العشاء جاهز. فدعاها الدكتور راتلدج إلى الدخول وهو يقف مع تامارا: «هيرتا، هذه تامارا هاوستون، السيدة الشابة التي كنت حدثتك عنها. تامارا، هذه هيرتا غروس صديقتي العزيزة ومدبرة منزلي.»

فتأثرت تامارا بإحساسه البالغ هذا نحو موظفته القديمة، وأحنت كل من المرأتين رأسها للأخرى. وقالت هيرتا بارتباك: «إنني مسرورة بلقائك.» كانت امرأة عديمة الجمال قد خالط الشيب شعرها البني، وكانت ترتدي ثوباً منقوشاً بالأزهار وفوقه مئزر طويل.

فأجابت تامارا: «أنا أيضاً مسرورة بلقائك، إذا كنت أنت التي طهوت طعام العشاء، فلا بد لي أن أخبرك بأن رائحته الشهية أسالت لعابي.»

كان العشاء لذيذاً مؤلفاً من روستو وبطاطا وهليون وسلطة خضار. أما الحلوى فكانت بوظة آيس كريم وكعكاً حلواً. وقدمت هيرتا الطعام، ولكنها نزعت مئزرها وجلست معهم إلى المائدة. ولم يمض وقت طويل، حتى سادت الإلفة بينهم جميعاً.

كان أول شيء قام به الدكتور راتلدج هو أنه جعلهم يستعملون أسماءهم الأولى، فقد قال لتامارا: «ان اسمي

هو كلايتون، ولكن أصدقائي يدعونني كلاي، وأرجو أن تفعلي أنت ذلك أيضاً. هل من الممكن أن ندعوك تامارا؟»

«نعم، أرجوكم.» قالت ذلك وهي تشمل بنظراتها هيرتا وفرانسي: «لقد أحببت منزلك يا كلاي. لا بد أن لديكم غرفاً كثيرة؟»

فقال: «إنها زائدة عن حاجتنا، ولكنه كان منزل أسرة زوجتي الراحلة، وقد بناه جد جد جد جدها. وكان تاجراً المانياً استوطن هذه المنطقة في القرن الثامن عشر. وللمنزل سور خارجي من الحجر الكلسي يبلغ سمكه عشرة إنشات، وكذلك سطح أزرق كان شائعاً بين المستوطنين الألمان.»

فاتسعت عينا تامارا: «سطح أزرق؟ لم ألاحظ ذلك. لماذا كان هذا النوع من السطوح شائعاً؟»

فقال: «إنها في الواقع، زرقاء رمادية، ولا أدري السبب. فهناك عدد من النظريات ولكن ليس منها واحدة مؤكدة. فوالدا أليسيا متوفيان، ولم يكن لها أخوة أو أخوات، ولهذا أصبح البيت مودوعاً تحت الوصاية لفرانسي بعد موت أمها، ولم يسمح لي ضميري ببيعه والإنتقال إلى منزل أصغر.»

وهكذا فرانسي، بصفتها وريثة أمها، ستستلم إرثاً مرموقاً عندما تبلغ سن الرشد. وكان هذا سبباً آخر يمنع تامارا من العبث بمستقبل إبنتها، فابنتها الآن طفلة ثرية جداً، ولن تقوم تامارا بأي عمل يلقي بظل من الشك، مهما يكن باهتاً، على حق الطفلة بإرثها.

طرقت تامارا، أثناء العشاء، موضوع تقاعد هيرتا. «علمت انك سترحلين للعيش مع ابنتك وأسرتها في ولاية نيومكسيكو.»

فأومأت هيرتا مجيبة: «نعم، إن لديها خمسة أولاد. واحد منهم معوق وبحاجة إلى عناية خاصة، فهي، فعلاً، بحاجة إلى مساعدة مني، رغم أنه من الصعب عليّ ترك هذا المكان، فقد عملت عند آل كونراد قبل أن تولد أليسيا ولو كانت ابنتي لما كان حبي لها اكثر، كما أن فرانسي...» ومدت يدها تمسك بيد الفتاة الصغيرة تضغط عليها. «فرانسي هي كواحدة من حفيداتي.» وهزت رأسها وكأنها تتخلص من حزنها. «ولكن أسرتي بحاجة إليّ الآن. ولهذا عليّ أن أذهب، إن على من ستأخذ مكاني، أياً كانت، أن تعامل كلاي وفتاتي الصغيرة بشكل حسن، وإلا فإنني...»

فابتسمت تامارا وقاطعتها قائلة: «أطمئنك إلى أنه ليس عليك أن تقلقي لهذا الأمر إذا... إذا تم الإتفاق على كل شيء هذه الليلة، فأنا شديدة الشغف بالأطفال.» ولاحظت أن كلاي كان يستمع بهدوء دون أن يقول شيئاً، عندما انتهى العشاء، سلم كلاي فرانسي إلى هيرتا لكي تساعدها على الاستحمام والذهاب إلى الفراش، قائلاً للطفلة: «عندما تمسين على استعداد للنوم، تعالي اخبريني.» ثم رافق تامارا إلى غرفة أخرى مجتازاً بها الردهة.

كانت هذه غرفة المكتبة بجدرانها المبطنة برفوف الكتب، وكانت أصغر مساحة، بشكل ملحوظ، من غرفة الجلوس، ومدفأتها القرميدية أقل جمالاً من تلك المدفأة

الرخامية، ولكن تامارا شعرت فيها براحة اكثر حتى وكأنها في بيتها.

سألها: «كم عمرك يا تامارا؟»

فشعرت بالضيق المعتاد الذي اعتاد هذا السؤال أن يبعثه فيها: «انني في الرابعة والعشرين، ولكن الناس دوماً يظنونني خلاف ذلك لأن طولي خمسة أقدام ووزني مائة رطل.»

فقال ضاحكاً: «آسف، أرى أنه موضوع حساس بالنسبة إليك. إنما لا تستعجلي بأن تظهري اكبر سناً.» وتبدلت أساريره ليبدو عليها التأمل. «سيحدث هذا بسرعة، وعند ذلك ستتمنين لو أن مظهرك يعود صغير السن مرة أخرى.»

أدركت أنه كان يتحدث عن نفسه. لا بد أن موت زوجته جعله يبدو اكبر سناً. فمثل ذلك الحادث الصاعق بإمكانه أن يؤثر بشكل مريع على من يبقى بعد الضحية.

تنهدت قائلة: «أظنك على حق.»

قال: «وهل يوافق والداك على تمضيتك عطلة الصيف بعيدة عنهم؟»

تأوهت تامارا في داخلها. إن آخر شيء تريده هو أن تتحدث عن علاقتها بهما، ولكنها لم تشأ أن تكذب عليه زيادة عما سبق وفعلت. فقالت: «كلاي، إنني أتصرف بحياتي بنفسي، فأنا لم أعش مع أمي وأبي منذ ست سنوات حين دخلت الجامعة، فهما إنسانان مشغولان على الدوام في التحصيل وحياتهما مليئة باهتماماتهما الخاصة، ثم انهما غادرا إلى ولاية أخرى بحكم عمل

والدي.» وندمت على ما تضمنته لهجتها من نبرة متهجمة كانت تبدو في صوتها كلما أتت على ذكر والديها راجية ألاّ يكون لاحظها.

ولكنه كان رجاء باطلاً، إذ قال: «أنا آسف، فأنا مازلت اتصرف معك وكأنك مراهقة، أليس كذلك؟ إنني لم أقصد هذا. كل ما في الأمر هو أنني والد شديد الحرص على حماية ابنته، وأظن أن كل الآباء بهذا الشكل. دعينا نجلس هناك أمام النار.»

جلست متكئة إلى الخلف وهي تتنهد طويلاً. ورفعت نظراتها لترى، لأول مرة، اللوحة الزيتية المعلقة فوق المدفأة.

كانت صورة لامرأة شابة ترتدي ثوباً ذا لون بنفسجي حالم جالسة على مقعد خشبي في الحديقة تحدق بها خمائل الزهور والمروج الخضراء. وكان وجهها الجميل مرتفعاً قليلاً إلى أعلى ما جعل عينيها تحدقان حالمتين في الفضاء.

وتمتمت تحدث نفسها اكثر مما كانت تحدثه: «آه، يالها من لوحة مذهلة.»

فقال بهدوء: «نعم، إنها زوجتي أليسيا. لقد عمل أهلها على أخذ هذا الرسم لها حال تخرجها من الجامعة...»

أنّبت تامارا نفسها بصمت لعدم انتباهها إلى هذا. كان عليها أن تخمن أنها زوجته، ولا عجب لانهياره ذاك لدى فقدها. وأي رجل مكانه لا ينهار؟ والآن، كل ما بإمكانها عمله هو تلطيف الجو وتغيير الموضوع في أسرع وقت ممكن. «لقد كانت رائعة الجمال.» وكان

هذا كل ما فكرت تامارا في قوله قبل أن يغلق ذهنها.

«نعم، لقد كانت كذلك. أظن أن المفروض أن انزل هذه الصورة إلى القبو، ولكنني لا أريد لفرانسي أن تنسى شكل أمها.» قال ذلك بلهجة حزينة.

شعرت تامارا بموجة من الغيرة تتملكها. كلا، إنها هي أمها، ولكنه لن يعلق صورتها لكي لا تنساها عندما ترحل هي.

واطبقت شفتيها بشدة تمنعهما من أن تصرخ احتجاجاً، ثم تحولت الغيرة إلى شعور بالخزي. ليس لها الحق في أن تكره هذه المرأة التي اتخذت الطفلة التي تخلت عنها تامارا، اتخذتها إبنة لها، كان عليها أن تكون شاكرة لأليسيا راتلدج، وهي فعلاً كذلك، ولكن من الصعب عليها أن تستمع إلى هذا الثناء على المرأة وكأنها هي حقاً والدة ابنتها هي.

أتراها ستقترف خطأً كبيراً، لو أنها بقيت هنا للعناية بفرانسي هذا الصيف؟ وهل ستتمكن من التخلي عنها مرة أخرى عندما يأتي فصل الخريف ويحين وقت عودتها إلى إيوا؟ أترى ستسبب لنفسها حزناً هو اكثر عمقاً مما كان؟ أجفلها كلاي عندما أعاد أفكارها إليها قائلاً: «إنك لم تسمعي كلمة مما كنت أقوله.»

قالت معتذرة وقد سادها الإرتباك: «آه، أنا... أنا آسفة. لقد كان ذهني مشغولاً بشيء آخر. ماذا كنت تقول؟»

أجاب وقد بدا عليه القلق: «كنت اسألك عما إذا كنت مازلت مصممة على قبول وظيفة مدبرة المنزل الموقتة التي قدمت طلباً بشأنها.»

ذعرت وهي تسمع نفسها تقول: «مازلت مصممة طبعاً، فأنا شديدة الرغبة بها.»

وهتف في اعماقها صوت يحذرها، كفى أيتها الغبية، إنك تثيرين التساؤلات عن مبلغ الصواب في قرارك المكوث هنا مدة الشهرين والنصف التالية، تراجعي وأعيدي النظر في الأمر قبل أن تقومي بأمر قد تندمين عليه كثيراً.

قال كلاي: «ثم إنه مازال لدي عدة اسئلة أريد طرحها عليك.» وضحك متابعاً: «ولا بد أن لديك أنت ما تسألينه، فأنت لم تسأليني كم سأدفع لك أو ما هي الوظيفة بالضبط.»

ذلك لأنها لم تكن تهتم. فإنها على استعداد للقبول بهذا العمل حتى ولو اقتضى الأمر أن تدفع هي إليه راتباً، فقط، في سبيل إراحة ضميرها.

وضحكت بدورها، شاعرة بالخلاص من تأنيب الضمير الذي طالما عذبها. ستقبل الوظيفة أولاً، وبعد ذلك تواجه، على مهل، ما قد يسببه هذا لها، قالت: «لا بأس، سأسألك، كم ستدفع لي أجراً؟ وماذا عليّ عمله مقابل ذلك؟»

فعاد يضحك: «أرجو أنك لم تكوني بمثل هذه الشجاعة بالنسبة إلى الراتب وشروط العمل عندما تقدمت بطلب وظيفتك التعليمية.»

فقالت: «لم يكن أمامي خيار بالنسبة لذلك. فقد كان عليّ بصفتي معلمة مبتدئة، أن اقبل ما يتوقعه اتحاد العمال. أما بالنسبة إليك... حسناً، المفروض انك ستزودني بالطعام والمأوى، والمأوى هنا هو اكثر رفاهية بكثير من بيتي،

ولهذا، أي أجر أناله منك سيكون كثيراً.» فنظر إليها بشيء من السخرية لهذا المنطق، ثم اخبرها بالمبلغ الذي سيكون أجرها. فبدت عليها الدهشة وقالت: «إنني أكره أن أقول لك هذا، وهو أنك اكثر كرماً مما كنت أتوقع. سأقبل به قبل أن تغير عقلك. والآن، ما هو المفروض أن أقوم به لكي أحصل على كل هذا المال؟»

قال محذراً: «آه، إنما لا تنسي. ستعملين أربع وعشرين ساعة في اليوم وسبعة أيام في الأسبوع.»

صرخت هازلة تتصنع الذعر: «آه، هذا ليس عدلاً، ألم تسمع عن اعلان تحرير العبيد رسمياً؟»

فتمتم هازلاً هو الآخر: «آه، إذن، أظن أن عليّ أن امنحك إجازات نهاية الأسبوع، إنما حصتك من الطعام أثناء الإجازات تلك ستقتصر على الخبز والماء.»

عند ذلك ضحك الإثنان، وسرت تامارا وهي ترى ظل الحزن يتلاشى من ملامح كلاي وهو ينطلق بالضحك على سجيته.

وعندما هدآ، أدار كلاي دفة الحديث إلى الناحية الجدية: «واجباتك الرئيسية هي العناية بفرانسي أثناء الأسبوع وإعداد وجبات الطعام، وأنا ساستلم العمل في الإجازات الأسبوعية عندما تكونين في اجازة. وأنا لا استضيف أحد. لم أقم بذلك منذ توفيت أليسيا، ولن أقوم بذلك هذا الصيف. ولكن إذا طرأ شيء واحتجت إلى استضافة أحد، فسآخذهم إلى المطعم، أو أكلف موظفي المطعم بإعداد كل شيء في المنزل.»

وتساءلت تامارا عما إذا كان يريد أن يخفف عنها

العمل، أم أنه لا يراها أهلاً لأن تعد حفلة عشاء، يبدو أنه لا يريد أن يأخذ اصدقاؤه فكرة أنها تعمل كمضيفة لديه. وتابع قائلاً: «إن لديّ طاقماً من عمال التنظيف يأتون كل نهار خميس لتنظيف المنزل. وهكذا لا يكون عليك أن تقومي بأي عمل كهذا، بل الاهتمام فقط بأن يبدو المنزل منسقاً إلى حد معقول. واكون شاكراً، إذا انت قمت بشراء المواد الغذائية حيث انك انت التي تعلمين ما تحتاجينه. إن لي حساباً جارياً في محل كايزرس كيتشن وهو قريب من هنا. وسأرتب الأمر بحيث يمكنك القيام بذلك.»

فاتسعت عينا تامارا: «كايزرس كيتشن؟ أهو سوبر ماركت أم مطعم؟»

فبدا عليه الهزل. «إنه سوبر ماركت الذي يوفر كل ما يحتاجه حي كينغ ويليام الذي نسكن فيه، وربما أنت لا تعلمين أن هذا الحي اطلق عليه اسم كايزر ويليام حاكم المانيا أثناء الحرب العالمية الأولى وحفيد الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا.»

فقالت تامارا. «هذا شيء ممتع حقاً، وكم يدعو إلى الأسى أن يحارب هذا الحفيد بلاد جدته التي حكمت البلاد طويلاً.»

وبينما كان الإثنان يتحدثان في هذا الموضوع التاريخي، اذا بصوت طفولي ينادي من خارج الغرفة: «بابا، انا مستعدة.» وبرزت فرانسي مرتدية بيجاما زينت مقدمتها بصورة علاء الدين ومصباحه، وهي تركض نحو أبيها، فقال لها: «لا بأس، يا حلوة، سأضعك في الفراش

وأقرأ لك حكاية. ولكنها يجب أن تكون حكاية قصيرة. إننا لا نريد أن نترك تامارا بمفردها هنا.»

فقالت الطفلة: «يمكنها أن تأتي معنا هي أيضاً.» وخفق قلب تامارا طرباً. إنها ستساعد في وضع ابنتها في الفراش. وهذا شيء كانت تحلم به كل ليلة تقريباً وذلك منذ تخلت عنها، وهكذا سارعت تقول قبل أن يجد كلاي فرصة للرفض: «يسرني هذا جداً.»

كان في الطابق الثاني أبواب مغلقة على الناحيتين من القاعة. أبواب كثيرة، ولم تعرف تامارا ما إذا كانت كلها غرف نوم، ولكنها فكرت بأن معظمها كذلك، ووقف كلاي أمام الباب الثاني إلى اليسار، ثم فتحه. كان غرفة كل ما فيها ذو لونين وردي وأبيض، تبدو وكأنها صممت حسب رغبات الطفولة. وكانت الدمى المحشوة متناثرة في كل مكان، ومن كل الاحجام والأشكال. كما أن الرفوف على الجدران كانت تعرض دمى مرتدية ملابس مطرزة باليد بمهارة فائقة.

صدرت عن تامارا شهقة وهي تدخل الغرفة. لقد منح آل راتلدج ابنتها كل شيء يمكن أن تطلبه فتاة. وفكرت في شقتها ذات الغرف الثلاث في بلدتها إيمس، كانت أنيقة نظيفة حسنة الجيرة، ولكن ما كان بإمكانها أبداً أن تنشيء ابنتها في مثل هذه الرفاهية.

كانت حياة فرانسي خلابة، فهي حياة اسطورية تحلم كل أم بمثلها لولدها، وقليلات من يمكنهن توفيرها. ويبدو أنها كانت على صواب حين تخلت عن ابنتها، فلماذا لا تعترف بذلك إذن؟

ومن ناحية أخرى، هل ستتمكن فرانسي من مواجهة واقع الحياة، ومرارتها؟ ولكن تامارا سارعت إلى نبذ هذه الفكرة، شاعرة بالشكر لكلاي ولزوجته المتوفية إليسيا واللذين بفضلهما لن يتوجب على فرانسي خفض مستوى معيشتها.

جلست تامارا على كرسي اطفال بينما وضع كلاي فرانسي على ركبتيه وهو يقرأ لها الحكاية، وعندما انتهى، وضع الطفلة في سريرها وأحكم الغطاء حولها.

بعد أن تمنى لها ليلة سعيدة، مدت فرانسي ذراعيها إلى تامارا قائلة: «أريد أن اقبلك وأقول لك، أنت أيضاً ليلة سعيدة.» وتراخت ركبتا تامارا، ولحسن الحظ كانت واقفة بجانب السرير فبدت وكأنها هبطت جالسة عليه، أخذت ابنتها بين ذراعيها لأول مرة في حياتها. واغرورقت عيناها بدموع لم تستطع مغالبتها بينما كانت فرانسي تحيط عنقها بذراعيها تحتضنها.

كانت قبلة الطفلة الرطبة التي طبعتها الصغيرة على وجنتها، كانت أثمن من أن تضاهى، وتساءلت عما إذا كان سيطاوعها قلبها أن تغسل وجهها بعد ذلك، ثم، وبخفة، مسحت دموعها بطرف ملاءة السرير قبل أن تترك الطفلة.

تمتمت بكلمتي ليلة سعيدة، ثم تحولت خارجة من الغرفة بسرعة متقدمة كلاي، كانت بحاجة إلى عدة ثوان تتمالك فيها نفسها قبل أن تتاح لكلاي فرصة النظر إلى وجهها. يجب ألاّ تسمح له أبداً بأن يرى مبلغ عواطفها نحو ابنته، يجب ألاّ تساوره ذرة من الشك، فهو بالغ

الدقة بوجه خاص من ناحية من يوظف للعناية بابنته.

وعندما التحق بها في الردهة، سألها: «هل تريدين رؤية غرفتك الآن؟» وعندما أومأت إيجاباً، قادها إلى الباب الثالث في نفس الناحية، فتحه وأضاء المصباح. كانت غرفة خلابة لا تشبه تلك الغرفة التي تقيم فيها في ذلك النزل، وقال: «إن غرفتي هي الأولى على قمة السلم في نفس الناحية. تليها غرفة الطفلة ثم هذه الغرفة. لم يكن في مثل هذه المنازل القديمة حمامات كثيرة. ولهذا ستشتركان أنت وفرانسي بحمام واحد. وهنالك حمام آخر عبر الردهة.»

فضحكت تامارا، قائلة: «في المنزل الذي نشأت فيه في مدينتي الريفية في ولاية إيوا كان لدينا حمام واحد في كل المنزل. وأن أتشارك بالحمام مع طفلة لن يكون مشكلة مطلقاً. متى تريدني أن انتقل إلى هنا؟»

فقال: «فلننزل إلى الطابق الأسفل ونتحدث في هذا الأمر.»

ومرة أخرى، جلسا في غرفة المكتبة، وأخذا يستمعان إلى قرقعة الحطب في النار.

قال بعد عدة دقائق: «ستترك هيرتا المنزل يوم الأحد، ولكنني أريدك أن تمضي معها عدة أيام، قبل ذلك، إذا كان هذا ممكناً، وبذلك يمكن لهيرتا أن تطلعك على نظام المنزل وعلى شواذ الأسرة.»

فرفعت تامارا حاجبها تسأله: «ماذا تعني بشواذ الأسرة؟»

فابتسم قائلاً: «لا تقلقي، فليس هناك شيء غريب أو غير

مألوف، فقط صفات صغيرة مميزة تجدينها عادة في أي أسرة، مثل أن يحب فرد فيها هذا الشيء أو لا يحبه، العادات وغير ذلك، فإذا أنت عملت مع هيرتا ليومين أو ثلاثة، فإن العمل يسهل عليك.»

«أظن عليّ أن أتبع رأيك هذا.» قالت ذلك مازحة، ولكنها ما لبثت أن قالت بجد: «هنالك مشكلة واحدة فقط، وهو إذا كنت سامضي طوال الصيف هنا، فعلي أن اغلق شقتي في إيمس. كذلك أنا بحاجة إلى ملابس وأشياء أخرى.»

فقطب كلاي حاجبيه: «أليس لديك أقرباء أو أصدقاء بإمكانهم تنبيه صاحب الشقة إلى انك ستتركينها، ثم يحزمون امتعتك ويرسلون إليك ما تحتاجينه منها؟»

ففكرت لحظة: «إن لدي اصدقاء يمكنهم القيام بذلك. وساتصل بهم غداً ونتفق على الترتيبات اللازمة.»

«هذا عظيم. إذن فالأمر يعود إليك في الانتقال إلى هنا في أي وقت، وليكن ذلك غداً، إذا شئت.»

معنى هذا أن بإمكانها أن تنتقل إلى هنا خلال ساعات قليلة وتمضي بقية الصيف مع فرانسي وكلاي.

وتكلم الصوت في داخلها محذراً، ما هذا ياتامارا؟ انك لم تأت إلى هنا من أجل كلاي راتلدج. فهو لا علاقة له بالأسباب التي دفعتك إلى البقاء هنا. إن ابنتك هي فقط من عليك الاهتمام به، ولا تنسي هذا.

كانت تعلم أن صوت ضميرها هذا كان على صواب، رغم كرهها لتأنيبه القاسي هذا لها.

وقالت تجيب كلاي باستسلام وكأنه استطاع أن يقرأ

افكارها: «اشكرك. دعني اتأكد مما إذا كانوا سيهتمون بأشيائي هناك في بلدي، وسأتصل بك غداً. هل من الممكن أن اتصل بك إلى العيادة؟»

فقال: «هذا حسن، سأخبر هيرتا بأنك ربما تنتقلين إلينا غداً.»

فنظرت تامارا حولها: «بالمناسبة، أين هي هيرتا؟»

فقال: «اظنها انهت تنظيف المطبخ، ثم صعدت إلى غرفتها، إن غرفتها هي التي تلي غرفة فرانسي، وهي تمضي اكثر أمسياتها هناك. أظنها تحب الإنفراد، إن غرفتها واسعة، وقد جعلتها تبدو كشقة ستديو.»

نظرت تامارا إلى ساعتها، فدهشت إذ وجدتها تقارب العاشرة، فقالت: «آه، لقد تأخرت، وكنت أرجو أن مازال بإمكاني القيام ببعض الإتصالات الهاتفية هذه الليلة. الأفضل أن أعود الآن إلى النزل.»

سألها: «هل بإمكانك أن تميزي طريقك في هذا الظلام؟»

ولم تشأ أن تخبره بأنها اصبحت تحفظ الطريق بين بيته والنزل، عن ظهر قلب لكثرة ما قطعته ذهاباً وإياباً آملة أن تحظى بلمحة من إبنتها، وقالت تطمئنة: «آه، نعم، إنني ماهرة في تذكر الطرقات.» كانا يسيران نحو الباب، وعندما وصلا إليه، فتحه لها فخطت إلى الخارج، ثم استدارت تواجهه قائلة: «اشكرك يادكتور راتلدج لاعطائك لي الوظيفة الصيفية هذه، اعدك بأنك لن تندم لذلك.»

قال: «ان اسمي هو كلاي، ألا تذكرين؟ وأنا الذي عليّ أن

اشكرك إذ اخرجتني من مأزق صعب. لولاك لكان عليّ أن أرسل فرانسي إلى المزرعة لتمكث مع أهلي، ولا أظن باستطاعتي الصبر على فراقها وقتاً طويلاً.»

وبدا لها حزيناً مستوحشاً. وبأسف تمتمت بتحية المساء، واندفعت شبه راكضة إلى سيارتها.

www.elromancia.com

الفصل الرابع

وقف كلاي عند الباب المفتوح ينظر إلى أن اختفت سيارة تامارا عن الأنظار، ثم أقفله وهو يطلق زفرة ألم طويلة. ما الذي حدث له لكي يدخل مثل هذه المرأة الرائعة الجمال إلى منزله؟

صحيح أنه كان في أمس الحاجة إلى مدبرة منزل وراعية للطفلة، ولكنه لم يستطع زحزحة شعوره بأنه اقترف غلطة كبيرة في دعوة هذه المرأة بالذات لتدخل حياته، وذلك لأنه لم يدرك مقدار ما هي عليه من جاذبية... فقد بدت له صغيرة في العيادة وتلك المريلة البلاستيكية البيضاء حولها بينما فمها مفتوح بالآلات. وإذا به يجفل هذه الليلة وهو يرى جمالها. كانت أشبه ما تكون بدمية هشة.

كان عليها فقط أن تنظر إليه بهاتين العينين الكبيرتين البراقتين، لكي يذعن ويقبل توظيفها عنده دون اعتبار للعاقبة التي من الممكن حدوثها. لم يكن يبدو عليها أنها قوية أو ناضجة بما فيه الكفاية لكي تتمكن من منح وقتها الكامل لمنزله وصغيرته، وفرانسي طفلة خفيفة صحيحة الجسم تحتاج دوماً إلى من يركض خلفها. إنما، من ناحية أخرى، تامارا معلمة مدرسة تدربت على التعامل مع أطفال بسن فرانسي.

تملكه الإرتباك لهذه الفكرة التي كانت تزعجه طوال

السهرة، فهو لن يحب إمرأة أخرى كما كان يحب زوجته، فقد كانت مركز وجوده كله، كانت صديقته العزيزة، وحبيبته الوحيدة، وشريكة حياته المحبوبة.

* * *

وفي الصباح التالي، كان كلاي في عيادته عندما استدعي إلى الهاتف، وكان نادراً ما يقبل المكالمات الهاتفية حين يكون منشغلاً مع مريض ما، ولكن موظفة الإستعلامات قالت إنها تامارا هاوستون ما جعله يشعر بالذنب إذا هو لم يتحدث إليها.

لقد كان أمضى، الليلة الماضية، وقتاً طويلاً مستيقظاً يفكر في طريقة يخبرها فيها بالسبب الذي يدعوه إلى إلغاء الإتفاق بينهما، ولكنها جميعاً كانت تتسم بالقسوة والتهرب، وعندما استيقظ في الصباح، كان قد نوى على الإتصال بها قبل أن تبدأ ترتيبات الإنتقال إلى منزله، ولكنه لأمرما، لم يجد وقتاً لذلك.

كلا، هذا غير صحيح، كان بإمكانه أن يجد الوقت لذلك ولكنه لم يفعل، فقد اتخذ مختلف الأعذار لكي يؤخر ذلك، والآن فات الوقت للانسحاب من هذا الإتفاق ولو بأثر ضئيل من الكرامة.

رفع سماعة الهاتف وابتدأ يتحدث: «تامارا، لقد كنت موشكاً على الإتصال بك...»

فقاطعته وقد أساءت تفسير ما يهدف إليه: «لا بأس، أظنك وجدت الخط مشغولاً لأنني كنت على اتصال مستمر مع ولاية أيوا طوال الصباح، ولكنني استطعت الإتفاق أخيراً مع

صديقة لي أن تغلق شقتي وتشحن إليّ ثيابي الصيفية وبعض الأشياء الخاصة...»

أصعقه صوتها، فقد كانت تتحدث كطفلة صغيرة وهي تلهث وتابعت قائلة: «إنني اتصل بك لأعلمك انني سأغادر هذا المنزل بعد دقائق قليلة، وبعد ذلك أحضر أمتعتي إلى منزلك إذا كان هذا يناسبك ويناسب هيرتا. إنك أخبرت هيرتا بأنني قادمة، أليس كذلك؟» كانت تتكلم بشكل متلاحق دون أن تدع له فرصة للنطق بكلمة، وعندما انتهت قال: «كلا، إنني... أنا...» آه، ليس بامكانه التراجع عن الاتفاقية الآن، فهو لا يريد أن يخذلها، كما أنه لم يفهم السبب الذي يجعلها متلهفة بهذا الشكل للعمل عنده مدبرة منزل وراعية للطفلة.

وأخيراً قال وهو يشعر، لسبب ما، وكأن حملاً ثقيلاً قد انزاح عن ظهره: «سأتصل بها الآن وأخبرها بقدومك. مرحباً بك في أسرتنا يا تامارا.»

• • •

عملت تامارا بقية الأسبوع بجانب هيرتا، حيث تعرفت إلى نظام المنزل، وما يحبه كلاي وفرانسي وما لا يحبانه من طعام وأشياء أخرى، ومركزها كمدبرة منزل، وقد أصرت هيرتا على الأمر الأخير قائلة: «إياك أن تنسي مركزك. إن كلايتون رئيس عمل ودود وغير متكلف، ولكنك لست فرداً في الأسرة. لست زوجة ولا قريبة أو حتى صديقة. إنك مستخدمة فقط، وهذا كل ما ستكونينه مهما كانت معاملته لك طيبة، وبتذكرك هذا، ستوفرين على نفسك الكثير من وجع الرأس.»

أدركت تامارا أنها نصيحة جيدة، ولكنها كانت من الانغماس في علاقتها بهذه الأسرة بحيث لم تحسب لها حساباً، ليس فقط لأنها والدة الطفلة، ولكنها كانت تزداد تأثراً بالرجل الذي تكفل رعاية وتربية ابنتها كل يوم. وسينسف هذا حتماً كل شيء اذا حدث واكتشف كلاي الأمر.

رحلت هيرتا إلى نيو مكسيكو مساء الأحد كما كان مقرراً، ومضى الأسبوع التالي بشكل ممتاز أثناء النهار عندما كانت أحلى أحلام تامارا تتحقق بقضاء ساعات مع ابنتها دون انقطاع، إنما الأمسيات كانت تسبب الارتباك.

كانت رتابة النظام اليومي نادراً ما تتغير، فقد كان كلاي يصل إلى البيت عادة بين الخامسة والسادسة حيث يمضي الوقت مع فرانسي بينما تعد تامارا العشاء، وبعد العشاء، كانت فرانسي إما تلعب في الخارج مع أولاد الجيران، وإما تتفرج على التلفزيون في غرفة الجلوس العائلية قرب المطبخ، وكان كلاي يشغل نفسه بالعمل في الحديقة أو في مكتبه في غرفة المكتبة، وأثناء ذلك كانت تامارا تنظف المائدة وتغسل الأطباق.

في الثامنة كانت تحمّم الطفلة، ثم تعيدها إلى أبيها الذي كان يقرأ لها حكاية قبل النوم ثم يغطيها في فراشها. وبعد ذلك كله، تبتدىء الحيرة والارتباك.

كان كلاي يمضي الوقت بالقراءة في المكتبة، أو يتفرج على التلفزيون أو متحدثاً في الهاتف، ولم تكن تامارا واثقة من أن عليها أن تجلس معه أو أنه يفضل أن

www.liilromancia.com

تبقى في غرفتها، كانت غرفة واسعة تحتوي على مقعدين مستطيلين وتلفزيون وسرير مزدوج، وخزانة بأدراج، كانت غرفة مريحة وبامكانها أن تسمع منها فرانسي إذا صرخت أو كانت قلقة. ولكنها، الغرفة، كانت موحشة نوعاً ما.

كانت تامارا اجتماعية بطبيعتها، تحب الناس، تحب الزيارات وتغيير المناظر، وتبادل الحديث مع الآخرين.

وأكثر من كل ذلك، كانت تريد أن تجلس إلى كلاي، كان وحيداً هو أيضاً، لا بد أنه كذلك، وكيف لا يكون وهو يمضي الوقت جالساً في الطابق الأسفل بمفرده في هذا البيت الكبير؟ لا بد أن يرحب بالصحبة، إنه لم يخبرها قط أنه يريد أن يبقى وحيداً، ولكنه أيضاً لم يطلب إليها الجلوس معه.

كانت نهاية ذلك الأسبوع هي أول إجازة لها، فلم يسمح لها كلاي حتى باعداد الإفطار، قائلاً: «لقد كنت اشتغلت أثناء نهاية الأسبوع الماضي بجانب هيرتا أثناء استعدادها للرحيل.» كانا واقفين في المطبخ بعد أن رآها تعد القهوة، «والآن، أنت حرة في القيام بأي شيء يسرك.»

قالت له وهو يأخذ من يدها إبريق القهوة: «ما يسرني هو أن أعد الإفطار لك ولفرانسي.»

فوقف ونظر إليها قائلاً: «هذا جميل جداً منك، ولكنك بحاجة إلى عطلتك، أخرجي وتفرجي على المدينة، إذهبي إلى السينما، إذهبي في قارب بنزهة في النهر...»

فقاطعته: «كلاي، بامكاني أن أقوم بكل ذلك، حتى ولو أعددت طعام الإفطار، وبجانب ذلك، فأنا لا أعرف أحداً

يرافقني لكل هذا، فليس في تجوالي وحيدة في الأنحاء ما يبعث البهجة في النفس.»

فتمتم مفكراً: «هممم... إذن فما تريدينه هو الصحبة، ما رأيك في أن نأخذك، أنا وفرانسي، في جولة في المدينة؟ أم أن الضجر تملكك الآن منا؟»

فهتفت: «لا تكن سخيفاً، إن هذا يسرني جداً، ولكنني لم أكن أعني... أريد أن أقول، ليس عليك أن...»

مقاطعها: «إنني أعلم أن ليس علي أن أقوم بذلك... ولكنني أرغب به. لقد كان يسرني دوماً أن أري المدينة للقادمين الجدد، ولكن هذا كان منذ وقت طويل...» وتلاشى صوته، فعلمت أنه لم يخرج منذ وفاة زوجته، إن من الأفضل له أن يعود إلى الإختلاط بالآخرين.

«كلاي، يسرني جداً أن أخرج للتفرج على المدينة معك أنت وفرانسي إذا كنت واثقاً من... أن هذا ما...»

فلاحت على شفتيه شبح ابتسامة وهو يقول: «تامارا، إنني واثق، إنني أرغب حقاً في تمضية النهار معك.»

واشتبكت نظراتهما، وبرد الدفء في عينيه ما كانت صممت عليه من البقاء بعيدة عنه لتكون مجرد موظفة.

ما لبث أن أشاح بوجهه عنها قائلاً بصوت جاف: «سأذهب لإحضار فرانسي.» ثم أسرع يغادر الغرفة.

وعندما عاد مع فرانسي التي كانت تقفز فرحاً منذ علمت بخروجها مع أبيها وتامارا للتفرج على المدينة، كانت هي قد أنهت إعداد الإفطار.

بعد ذلك بساعة، وبعد أن أعيد تنظيف المطبخ، استقلوا، هم الثلاثة، سيارة كلاي الكاديلاك.

قال لتامارا: «إن أقرب مكان نبدأ منه هو ألامو. وهو على مسافة قصيرة من هنا، في منتصف المدينة، ألم تريه بعد؟»

«لقد مررت بسيارتي بقربه، ولكنني لم أدخل إليه.»

فتدخلت فرانسي من المقعد الخلفي حيث كان الحزام مشدوداً حولها قائلة: «لقد ذهب تلامذة صفي في رحلة الى هناك، وقالت معلمتي ان اسمه أيضاً هو مهد تكساس... آه... مهد حرية تكساس.»

لم يكن لزهو تامارا بذكاء ابنتها، حدود، فقالت توافقها: «هذا صحيح، فقد حارب سكان تكساس مكسيكو لأجل حريتهم مرتين، لقد كانوا يفوقونهم عدداً، وقد فشلوا في حصار ألامو، ولكن بعد أكثر من شهر بقليل ربحوا المعركة في سان جاسنتو لتصبح تكساس فيما بعد قطعة من الولايات المتحدة الأميركية.»

نظر كلاي إليها وهو يدير المحرك، ثم قال مازحاً: «إنك أكثر خبرة بتاريخ أميركا من غيرك من الأميركيين، كثيرون من سائحينا حديثي السن لم يسمعوا بالامو من قبل.»

فقالت تذكره: «ذلك انني معلمة، فلا عجب أن اهتم بتاريخ هذه الولاية.»

ضحك كلاي وهو يخرج السيارة من الكاراج. «هل أنت منتبهة أيضاً إلى أن ألامو ليست قلعة فقط وإنما أيضاً مدرسة اسبانية؟ وهي الأولى في سان انطونيو، واسمها الحقيقي هو مدرسة سان انطونيو دي فاليرو.»

قالت فرانسي: «قالت معلمتنا ان المدرسة هي اشبه بمكان خيري ولكن الناس يعيشون فيها أيضاً.»

وعندما وصلوا إلى حيث يقصدون، أوقف كلاي سيارته قرب ألاموبلازا الساحة الحجرية أمام المبنى المرمم، ثم دلفوا إلى الداخل، كان المبنى أصغر مما كانت تامارا تتصور، وغرفه صغيرة مفتوحة على الغرفة الرئيسة. وكان من الصعب ان يصدق المرء أن حوالي مائتي شخص كانوا محشورين في هذه المساحة. وحقيقة أن هذه الحفنة من الوطنيين استطاعوا أن يصمدوا أمام آلاف الجنود من الجيش المكسيكي مدة ثلاثة عشر يوماً إلى أن كانت صيحة الحرب عند أهالي تكساس منذ ذلك الحين هي (تذكروا ألامو).

بعد أن تركوا ألامو، قطعوا المسافة القصيرة إلى ازيو ديل ريو على الأقدام وقال كلاي وهو يتجه بتامارا وفرانسي هابطاً بهم درجات من الإسمنت إلى حيث كانت حديقة حقيقية تقوم تحت مستوى الشوارع المزدحمة، قال: «كان نهر سان انطونيو قذى للعين عندما كان يخترق وسط المدينة، وهاهوذا الآن قد أصبح أهم ما يجتذب السواح.»

فقالت تامارا وهي تنظر إلى المنتزهات الفخمة والمتاجر ومعارض الفنون والمطاعم: «أستطيع أن أدرك السبب.»

ثم قاموا بنزهة في النهر في قارب أخذ يتحرك بهم مع مجرى النهر خلال المدينة، ومروا تحت أشجار سرو ونخيل عملاقة. وافتتنت تامارا بكل هذا، فهي لم تر قط شيئاً كهذا في إيوا.

قالت له: آه، يا كلاي، ما أروع هذا، تصور جمالا استوائياً في قلب احدى أكبر مدن البلاد.»

فأجاب: «نعم، لقد كان عملاً ذكياً من أهالي المدينة استغلوا فيها امكانيات هذا النهر...» وتوقف عما كان يقوله وأشار أمامهم: «أنظروا إلى هناك عند اقترابنا. ذلك المسرح في الهواء الطلق على الضفة اليمنى من النهر هو مسرح نهر ارنيزون ومدرّج المقاعد على الناحية الأخرى حيث يجلس المتفرجون، أنصتا، بامكانكما أن تسمعا الموسيقى.»

وعندما اقتربوا، استطاعت تامارا أن ترى الموسيقيين يعزفون على خشبة المسرح، وعلى الضفة المقابلة من النهر كان المفترجون جالسين يصفقون مع الموسيقى.

وهتفت: «لا أعتقد أن هناك مسرحاً آخر مثل هذا.»

تناولوا غداءهم على مهل في مطعم دوّار يقوم على قمة برج كانت المناظر حوله غير محدودة، ثم امضوا بقية العصر في حديقة براكنريدج حيث أخذت فرانسي تلهو في قسم الأطفال من الحديقة، وعندما تعبت، ركبوا جميعاً التلفريك إلى حديقة الحيوانات القريبة.

وعندما وصلوا عائدين إلى البيت كانوا مرهقين قذرين غارقين في الغبار.

قال كلاي متذمراً وهو يدخل السيارة إلى الكاراج ويفك حزامه: «إذا استمرت هذه الحال، فستجعلانني، انتما السيدتان الصغيرتان، رجلاً عجوزاً. لقد نسيت كم هو متعب التجوال في المدن.»

فقالت تامارا بابتسامة واسعة لا تدل على شيء من الأسف: «إني آسفة، هل تريد مساعدة في دخول البيت؟ إذا أمسكتك فرانسي من جانب، وأمسكتك أنا من الجانب الآخر، أظن بامكاننا سحبك إلى الداخل...»

فقال ببطء بلهجة مازحة: «آه، إفعلي ذلك. وسأريك من هو العاجز الضعيف...»

«بابا بابا، أرجوك، لا تؤذي تامارا.»

كان في صوت الطفلة خوف حقيقي.

فجمد الإثنان جالسين وقد ذهلا لحزن الطفلة الخاطىء هذا. وأسرعت تامارا تطمئنها وهي تفك حزام مقعدها: «لا تخافي يا حبيبتي، كنا نمزح فقط.» ثم احتضنتها قائلة: «كنا نغيظ بعضنا البعض، إن أباك لم يسبب لي أي أذى قط.»

فقال كلاي وهو يمر بيده على رأس الطفلة: «أنا لن أفعل هذا طبعاً.»

بعد أن وضعا فرانسي في فراشها تلك الليلة، شرعت في مغادرة الغرفة بينما جلس كلاي على جانب السرير ليقرأ الحكاية لفرانسي.

قبل أن تصل تامارا إلى الباب، ناداها كلاي: «تامارا أريد أن أتحدث إليك في غرفة المكتبة عندما أنتهي من هنا.» كانت الكلمات مهذبة، ولكنها شعرت بشيء في لهجته.

فأجابت وهي تبتعد: «نعم، بالطبع.»

كانت جالسة على الأريكة محاولة التركيز على قراءة صحيفة بين يديها عندما دخل كلاي إلى غرفة المكتبة. حاملاً معه كوبين من عصير التفاح، ناولها احدهما ثم جلس.

أخذ رشفة من كوبه ثم قال: «تامارا... إن كنت قد أسأت إليك حين كنت امزح معك، فأنا استميحك عذراً.»

فتملكت الحيرة تامارا، لقد كان خائفاً حقاً من أن يكون قد أساء إلى مشاعرها، كيف أمكنه أن يظن ذلك؟

فقالت له: «كلاي... حقاً الأمر لم يزعجني، بل من المؤكد ان ما قلناه كان بادرة طيبة تنم عن ارتياح كل منا للآخر.»

«هنالك شيء عليك أن تعرفيه، يا تامارا، لقد كنت أحب زوجتي جداً. لقد بقينا متزوجين قرابة الأربعة عشر عاماً، وكان زواجنا سعيداً. وعندما قتلت بذلك الشكل المفاجيء، كاد ذلك يدمرني، وأظن أنني ما كنت استمررت بعملي لولا وجود فرانسي.»

وضع كوبه على المنضدة ثم بدأ يذرع الحجرة وهو يقول: «لقد نشأنا، أنا وأليسيا معاً، رغم أنها كانت تعيش هنا في المدينة، بينما والدي كانا مزارعين. لقد كان جداها لأمها يملكان مزرعة بجوارنا، وكانت هي تمضي فصول الصيف والعطل المدرسية معهما، وعندما كبرنا إلى حد كان يمكننا فيه قيادة سيارة، أصبحنا نتقابل بشكل أكثر، ثم دخلنا جامعة أوستن معاً.»

سكت، ثم وقف بهدوء يحدق في رسم زوجته. وابتدأت تامارا تظن أنه قد نسي وجودها هي في الغرفة إلى أن عاد إلى الكلام، وهذه المرة كان صوته منخفضاً وكأنه يفكر بصوت عالٍ.

«لم يكن لأي منا علاقة جدية مع أي أحد آخر، كان من المسلّم به أننا عندما نكبر سنتزوج، وهذا ما حصل، إذ تزوجنا بعد مضي أقل من شهر على تخرجنا من الجامعة، ثم انتقلنا إلى لوس أنجلوس حيث أكملنا دراساتنا العليا.»

كانت تامارا تستمع متشوقة إلى سماع ما أمكنها عنه، ولكن السؤالين اللذين لم تستطع إلقاهما، لم يأت على

ذكرهما، وهما، لماذا تكفلا بتربية طفلة بدلاً من أن ينجبا أبناء بنفسيهما؟ وإذا كان أحدهما عقيماً، فأيهما؟

توقف عن السير ثم وقف ويداه في جيبيه، محدقاً في المدفأة الخامدة، وقد بدا في نظراته الساهمة شعور عميق بالوحدة.

وضعت كوبها بجانب كوبه، ثم سارت نحوه ووقفت بجانبه وهي تقول: «إني آسفة يا كلاي...» فأجفل لسماعه صوتها وقفز ما جعلها تدرك أنه كان حقاً قد نسي وجودها في الغرفة.

قال بشيء من التجهم: «إنني لا أريد العطف. ان علي أن أوضح نقطة ولكنني أخشى أنني أتخبط دون هدى.»

لم تستطع أن تدعه يعتقد أنه يسبب لها الضجر، فقالت: «آه، كلا...»

فقاطعها: «ما أحاول أن أقوله هو انني أفتقد أليسيا و...» وتهدج صوته مرة أخرى، ثم تابع قائلاً: «ما أحاول قوله لك، يا تامارا، هو أنك تعيدين إليّ ذكريات كنت أظنها ماتت، أظن من المفروض أن أكون شاكراً لك هذا، ولكنني لست كذلك، فهذا يعقد كل شيء، فأنا ليس في نيتي الزواج مرة أخرى، لأنني لن أحب امرأة أخرى أبداً كما أحببت أليسيا، كما أنني لن أقبل انشاء علاقة غير الزواج. فالعلاقات العابرة ليست في حسابي، إن هذا لن يكون أمثولة يحسن أن أعلمها لابنتي.»

وسرت تامارا وهي تسمع أنه يكن لها شعوراً قوياً، هل يعني هذا أنه سيصرفها من العمل ويرسل فرانسي إلى مزرعة والديه إلى أن يجد موظفة دائمة عنده؟ وتمنت ألاّ

يكون ظنها صحيحاً، هل تسأله أم تبقى ساكتة أملاً في ألاّ تكون هذه الفكرة قد خطرت بباله؟

كلا، لا يمكنها ذلك، إن عدم معرفتها ما إذا كان سيصرفها من العمل سيذهب بعقلها.

وابتدأت تقول: «كلاي، هل ستغير رأيك فلا تدعني أعمل هنا هذا الصيف.»

خافت وهي تراه يتردد، ولكنه هز رأسه: «كلا.» كان صوته آسفاً إنما حازماً. «صدقيني أنني كنت فكرت في ذلك، حتى انني وصلت في تفكيري إلى أنه ينبغي علي ذلك. ولكنني وجدتك محبة لفرانسي كما أنها هي أيضاً تبدو مخلصة وفية لك. كما أنني لم أجد إمرأة أخرى أستطيع أن أثق بعنايتها بابنتي، ولهذا، أظن أنني...» وأطبق شفتيه بقوة قبل أن يكمل جملته. فقالت تكمل عنه: «أنك ستبقيني هنا؟» وأدركت أن تخمينها كان صحيحاً عندما رأت الضيق في ملامحه.

انفجر قائلاً: «اف منك، يا تامارا، لا تجعلي الأمر أكثر صعوبة مما هو عليه الآن. فاذا شئت الذهاب، فأنا لن أمنعك، إنما إذا أنت قررت البقاء فأهلا بك.» واندفع خارج الغرفة ومن ثم خارج المنزل صافقاً الباب خلفه وهو يهبط الدرجات متوجهاً نحو البوابة.

كان يفكر في ما حدث، لقد ابتدأ يشرح مشاعره نحو أليسيا والحزن الذي مازال يشعر به لموتها كوسيلة لتخفيف الصدمة عن تامارا عندما يصرفها من العمل. حتى انه اعترف بشعور المودة والعطف نحوها لأنه لم يكن يريدها أن تظن نفسها ملومة في ذلك الصرف. ولكنه كان

كلما ازداد كلاماً، صعب عليه الوصول الى لب الموضوع، وبدلاً من أن يقول لها بكل بساطة أنا آسف، يا تامارا، ولكن عملك هنا لم يأت بنتيجة حسنة، ثم يناولها شيك بمبلغ ضخم، إذا به يتردد ويتلعثم ويدور حول الموضوع إلى أن سمع نفسه يتوسل إليها، فعلاً، بالبقاء.

ربما قد نالت منه الوحدة أخيراً، فالسنة الأخيرة كانت كابوساً بالنسبة إليه، ولكن هذا ليس سبباً يجعله يلتمس التعزية عند فتاة مثل تامارا. حسناً، إنها ليست فتاة في الواقع، ولكنها كذلك بالنسبة إليه. فسن الرابعة والعشرين هو سن صغير بالنسبة إلى من هو مثله في السابعة والثلاثين. وأكثر من ذلك أنها مستخدمة في منزله.

الفصل الخامس

لم يكن ترك العمل ما تريده تامارا، لكنها أثناء الأسبوع التالي، كانت تتمنى لو كان ذلك. فالحيرة والإحراج اللذان ضايقاها في الأسبوع الأول لعملها في هذا البيت، قد استحالا الآن إلى تعسّف واضح. ذلك أن تياراً خفياً من الارتباك لوضعهما ذاك، قد أقام بينهما جداراً جعلهما كغريبين يعيشان في منزل واحد.

أصبح سلوك كلاي الودود، بارداً وكذلك سلوكها. كان واضحاً أنه يتجنبها. فلم يعد يتناول طعام الإفطار معها ومع فرانسي، وفي ذلك الأسبوع لم يأت لتناول العشاء وذلك لمرتين متتاليتين، وأثناء ذلك كان يتصل بها ليخبرها بأنه غير قادم، ولكنه لم يقل قط إلى أين كان يذهب، وأدركها الذعر وهي تشعر بكل تلك الغيرة لفكرة أنه قد يكون على ارتباط مع أحد. وفي الليالي التي يكون فيها في البيت، كانت الأحاديث بينهما تدور بشكل متكلف رسمي وأكثرها تتناول فرانسي. وبعد أن تأوي الطفلة إلى فراشها، ينسحب هو إلى غرفة المكتبة دون أن يفكر بدعوتها معه، وما أن حلّ مساء الجمعة حتى تفاقم شعور تامارا بالإهمال والوحدة. ولولا أنها كانت هناك لأجل فرانسي، لكانت قدمت استقالتها وعادت إلى بلدها. ولكنها كانت مستعدة لتحمّل أيّ شيء في سبيل أن تطيل مدة بقائها مع ابنتها قدر الإمكان.

ولسوء الحظ، كان تأثرها بكلاي يتصاعد ويزداد بالرغم من ابتعاده المهذب عنها. وأدركت أنه لم يكن يتعمد أن يكون فظاً، وإنما كان فقط يقي نفسه من الوقوع في الحب مرة أخرى.

في مساء الجمعة ذاك تصاعد رنين الهاتف أثناء تناولهما الطعام، فأجاب كلاي المكالمة من المطبخ. وسمعته يقول: «الو، آه مرحباً يا أمي. ماذا هناك؟»

فهتفت فرانسي بلهفة: «إنها جدتي.» وقفزت من على كرسيها ثم اندفعت نحو المطبخ: «دعني أتكلم معها، أنا أيضاً يا بابا.»

وشعرت تامارا بأنها إنما تسترق السمع بجلوسها في غرفة الطعام تستمع إلى حديث من جانب واحد... وحاولت أن تصرف ذهنها عن ذلك وتفكر في شيء آخر. ولكن بعد أن تكلمت فرانسي عدة دقائق، سمعت كلاي يقول: «ولكن، يا أمي ذلك يوم عطلتها. ربما كان لديها خطة أخرى لقضائها.» وأدركت أنه كان يتحدث عنها.

لم تكن تامارا قد قابلت والدي كلاي قط من قبل. فقد كانت مزرعتهما على بعد خمسين ميلاً من سان أنطونيو ولهذا كانت رؤيتهم لبعضهم البعض، نادرة ولكنها لاحظت أنهم كانوا يتحدثون هاتفياً كل عدة أيام، وكان كلاي قد ذكر أن لديه شقيقتين يعيشان ويعملان في المزرعة هما أيضاً، وعندما سألته عن السبب الذي دعاه إلى اختيار مهنة لا تمت بصلة إلى

مهنة الأسرة، لم يزد على أن هز كتفيه وتمتم شيئاً عن أنه لم تشده مهنة عائلته للعمل.

والآن، بعد أن أدركت أنهم يتحدثون عنها ضايقها أن تُترك جانباً. كان قد سكت لحظة ثم عاد يقول: «اسمعي يا أمي، إنني لا أريد أن أتطفل على عطلتها، ولكن...»

فقاطعته تامارا وقد سرتها هذه الفرصة التي سنحت لها للتعرف إلى أسرة كلاي، وأسرة فرانسي الواسعة من أعمام وأخوال وربما أبناء عم لم تكن لتحصل عليهم لو كان سمح لتامارا بتربيتها، قاطعته قائلة: «ليس لديّ أية خطة لقضاء عطلتي، وأحب الذهاب جداً.»

وبدا شيء من الاضطراب عليه وهو يقول: «آه، هذا حسن، سأخبرها إذن بأننا سنأتي جميعاً.»

استيقظت تامارا صباح الأحد على صوت الرعد والبرق، وسحب سوداء مثقلة تنذر بوابل من المطر في أية لحظة.

آه، كلا، هل يعني ذلك أنهم لن يذهبوا إلى المزرعة؟ فحفلة الشواء ستكون في الحديقة طبعاً، ولكن بامكانهم بكل تأكيد، أن ينقلوا ذلك إلى داخل المنزل إذا ساء الجو. فالسماء لم تمطر سوى مرتين أثناء وجودها في سان أنطونيو. وقد كان كلاي أبدى ملاحظة حول هذا الجفاف قائلاً بأن شهر حزيران (يونيو) هذا هو عادة، أكثر الأشهر مطراً عندهم.

إنها ستتضايق جداً لو أنهم ألغوا هذه النزهة، فقد طالما تطلعت بشوق إلى رؤية المزرعة حيث نشأ كلاي،

والتعرف إلى الناس الذين سيشاركون في تشكيل حياة فرانسي أثناء سنوات نموّها. اكتأبت تامارا لهذه الفكرة حيث أنه لن يعود لها دور في تنشئة ابنتها بعد هذا الصيف، كما أنها كانت تدرك أنها كانت تستغل سلاسة طبع كلاي لحمله على الموافقة على الذهاب معهم بينما هي تعلم أنه لا يريدها. وبعد، فهي ليست سوى مدبرة منزل، فهو ليس ملزماً بأن يلحقها بأسرته أو بخططه الاجتماعية. وانهمر المطر بينما كانت ترتدي بنطلون الجينز وقميصاً صوفياً حسب اقتراح كلاي الليلة الماضية عندما سألته عن طبيعة الجو هناك. وكانت قد اطمأنت إلى أن العاصفة لن توقفهم عن الذهاب، آملة في أن تكون على صواب.

وعندما نزل كلاي وفرانسي إلى المطبخ كانت تامارا قد أنهت إعداد طعام الفطور. وكان الاثنان يرتديان الجينز والأحذية الطويلة وقبعات رعيان البقر. وتنهدت بارتياح. يبدو أن أهالي تكساس يولدون أقوى بأساً وتحملاً من أن يدعوا جواً سيئاً يغير من خططهم.

حدق إليها كلاي وعيناه تلتمعان استحساناً: «تبدين رائعة. لا أظن لديك حذاء طويلاً.»

فأجابت ضاحكة: «إنني لا أحتاج حذاءً طويلاً في ايمس.»

فقهقه ضاحكاً: «كلا، لا أظنك بحاجة إلى ذلك. حذاء التنس هذا، مناسب. إنه يبدو متيناً، ولكنك ستكونين بحاجة إلى قبعة. ليس ثمة تكساسي يحترم نفسه، يجول راكباً على ظهر الحصان في البراري من دون قبعة.»

فقالت بشيء من الدعابة: «ماذا تعني بقولك يجول راكباً على ظهر الحصان في البراري؟ فالجو ماطر، هذا إلى أنني فتاة من المدينة لم أركب حصاناً قط.»

وهنا قهقه كلاي ضاحكاً: «امامك إذن متعة كبرى، سنجعلك راعية بقر. أما بالنسبة إلى المطر...»

فقالت فرانسي بلهفة: «بابا. لا بد أن إحدى قبعات أمي ستناسب تامارا.»

فصعق الإثنان وران عليهما الصمت برهة ما لبث كلاي بعدها أن هز رأسه وقد شحب وجهه، ولكنه عندما تكلم كان صوته هادئاً رغم رجفة بسيطة تخللته: «لقد أعطينا ثياب أمك إلى جمعية خيرية. ألا تذكرين؟»

«آه، نعم.» وبدا في صوت فرانسي خيبة الأمل إنما ليس الحزن بشكل خاص، وبدا أنها ترى الحديث عن فقدانها لأمها أسهل مما يراه أبوها.

تحركوا للسير إلى المزرعة بعد فراغهم من تناول طعام الإفطار بوقت قصير وبعد أن وضع كلاي الأطباق القذرة في غسالة الأطباق، إذ كان لا يزال مصراً على منع تامارا من العمل أثناء عطلتها.

انقطع هطول المطر وهم في منتصف الطريق إلى حيث يقصدون. كما أن السحب ابتدأت تتبدد. وفي الوقت الذي تحولوا فيه من الطريق الرئيسي إلى طريق خاص مترب، كان واضحاً أن المطر لم يهطل هنا. وانتهى الطريق أخيراً أمام بوابة تعلوها لوحة كتب عليها مزرعة راتلدج.

كان المنزل كبيراً أبيض بطابقين مستكيناً بين أشجار

قديمة ضخمة. وبدا لتامارا أن هذه الأشجار لا بد غرست قبل سنين كثيرة لتظلل المنزل وتحيط بالمباني حيث أن بقية المنطقة كانت على مدى النظر عبارة عن براري عديمة الأشجار.

أوقف كلاي السيارة بجانب الكاراج المنفصل عن المنزل، ولكن حتى قبل أن يطفىء المحرك كانت فرانسي قد فكت حزام مقعدها وقفزت خارجة من السيارة: «جدتي. جدتي.» وكانت تنادي امرأة كانت ظهرت على الشرفة أمام الباب: «لقد أحضرنا معنا تامارا.»

فانحنت الجدة واحتضنت الطفلة بينما سار كلاي وتامارا نحو المنزل بشكل أكثر رصانة ثم صعدا الدرجات إلى الشرفة، فوقفت السيدة راتلدج وعانقت كلاي، ثم استدارت إلى تامارا. اتسعت عيناها وارتسمت على وجهها النحيل دهشة سرعان ما تلاشت وهي تمدّ يدها تصافحها قائلة دون انتظار أن يجري كلاي بينهما التعارف: «إنني روث راتلدج، ولا بد أنك تامارا.»

مدت تامارا يدها. كانت يد امرأة تعمل في مزرعة، سمراء خشنة قوية القبضة: «تامارا هاوستون. إنني مسرورة جداً بمقابلتك، يا سيدة راتلدج.»

فقالت المرأة بذهن غائب: «ادعيني روث، إننا هنا أسرة كبيرة. ولكنني كنت أظنك... لا بأس، لقد أخبرني كلاي أنك معلمة، ولكن هذا غير ممكن. فسنك غير مناسب.»

كانت روث راتلدج في الستينات من عمرها حيث أن كلاي كان أخبر تامارا أن لديه أخاً أكبر منه وكذلك آخر أصغر.

ولكن سنها لم يكن يبدو عليها. وكان شعرها الداكن يخالطه قليل من البياض ولكنه مقصوص بشكل أبرز وجنتيها العاليتين وذقنها الحازمة. وكان من المدهش أن وجهها كان خالياً من التجاعيد إلا من غضون خفيفة عند زاويتي عينيها الحادتين.

قالت تامارا تكرر ما اعتادت أن تقوله دوماً: «إنني في الرابعة والعشرين وأعلّم الصف الثاني في ايمس. وأنا أبدو أصغر سناً لكوني صغيرة الحجم، وعندما كنت في العاشرة كان الناس يظنونني في السابعة، والآن ما زلت أبدو كمراهقة.»

ويبدو أن الانزعاج قد بدا عليها أكثر مما كانت تريد لأن والدة كلاي بدا عليها الضيق وقالت معتذرة: «إني آسفة. أعلم أن هذا يسبب الإحباط لك، ولكن أن يبدو المرء أصغر سناً يعوّض عن ذلك. انتظري إلى أن تصبحي في مثل سني. عند ذلك ستكونين سعيدة لأنك كذلك.»

واستدارت تدفع الباب وهي تمسك بيد فرانسي وتسير أمامهما: «تفضلا بالدخول. إن القهوة على النار. لقد خبزت لك جوانيتا الخبز بالقرفة الذي تحبه، يا كلاي، وهو ما زال ساخناً.»

همهم كلاي بسعادة غامرة وهو يدخل المنزل لتعبق في أنفه رائحة خبز القرفة الطازج والفطائر: «لقد اشتقت إلى خبز القرفة الذي تصنعه جوانيتا.» ونظر حوله قائلاً: «أين أبي؟»

فأجابت روث: «إنه مع جيم في الخارج يصلحان الأسيجة، لقد حان وقت عودتهما.»

وفي المطبخ القديم الطراز، حيّا كلاي وفرانسي المرأة المتوسطة في السن والتي هي جوانيتا الطاهية ومدبرة المنزل. كانت متينة البنية سوداء الشعر.

قالت وهي تشير إلى كرسي أمام المائدة: «اجلس وكل الخبز الذي خبزته لك لتوّي.»

كانت الفطائر ساخنة لذيذة، وكان الحديث حول المائدة مليئاً بالحيوية ولكنه لم يكن يهم تامارا التي سرعان ما تخلت عن محاولة فهم ما يتحدثون عنه. وأثناء فترة صمت مالت نحو فرانسي تسألها إن كان بإمكانها أن تريها حظيرة الحيوانات المختلفة التي كانت لمحتها عند وصولهم.

هتفت الطفلة: «نعم. هذا عظيم إن لديهم خيولاً وبقراً ودجاجاً و...»

فقاطعتها تامارا ضاحكة: «أووه على مهلك... أنا أعرف أن كل هذا موجود، دعينا نذهب ونراهم.»

فقالت فرانسي وهي تترك كرسيها: «لا بأس.» ومشت نحو أبيها تشد كمه لتسترعي اهتمامه: «بابا، إننا سنخرج أنا وتامارا. إنني سأريها الأحصنة والبقرات و...»

واستمرت في الكلام بينما بدا الإجفال على كلاي وهو يرى تامارا تنهض عن كرسيها. ونقل نظراته بينها وبين ابنته، ثم قال لفرانسي: «ولكنني أنا الذي كنت سأريها هذا.»

فأجابت بشهامة: «لا بأس. يمكنك أن تأتي معنا أنت أيضاً.»

فنظر إليها قائلاً: «شكراً كثيراً.» ووقف قائلاً لأمه: «هل ستأتين معنا، يا أمي؟»

فهزت الأم رأسها: «كلا، شكراً. سأساعد جوانيتا في إعداد العشاء.»

قادتهم فرانسي خارج المطبخ إلى حيث اجتازوا الباحة إلى حيث حظيرة الحيوانات. أوسعت خطاها لتسير بجانبه وهما يسيران بين الفراخ التي كانت تنقر الأرض بينما تملأ الجوّ نقيقاً.

وعندما دخلا الحظيرة، قالت فرانسي: «سأريك حصاني.»

فسألتها تامارا باهتمام: «ألديك حصان؟ ولكنك أصغر من أن تحسني الركوب؟»

فقالت فرانسي باشمئزاز: «آه، يا تامارا. لقد أهداني أبي الجمال الأسود في ذكرى مولدي الثالث، وكنت أركب الخيل قبل ذلك.»

فقهقه كلاي ضاحكاً: «أظن أن عليك، دون الناس جميعاً، أن تحاذري القول لأحد انه أصغر من أن يقوم بعمل شيء. فقد لاحظت أنك تكرهين أن يقول لك أحد هذا. لا بد أنك كنت بنفس حجم فرانسي عندما كنت في سنها.»

فسرى في نفس تامارا موجة من القلق أخرستها لحظة. كان على صواب في كلا الأمرين، ولكن الأمر الثاني هو الذي أخافها.

لقد كانت فرانسي في نفس الحجم الذي كانت عليه تامارا عندما كانت في السابعة. وليس هذا فقط، ذلك أن الفتاة الصغيرة تشبه تماماً تامارا حينذاك. كان الشبه بين الأم

والإبنة صاعقاً وعليها أن تحاذر من أن ينتبه أحد من آل راتلدج إلى هذا.

قالت له وهي تفتش في ذهنها بسرعة عن موضوع آخر: «الحق معك. فقد كان الأمر حساساً بالنسبة إليّ. أنا آسفة يا فرانسي، فأنا واثقة من أنك فارسة ممتازة. لقد قلت إن اسم الحصان هو الجمال الأسود فهل لونه هو أسود كله؟»

فغرق كلاي بالضحك، بينما بدت البلاهة على وجه فرانسي: «ليس تماماً. ولكن أمي دعته بهذا الاسم الذي هو للحصان الذي في الحكاية.»

وقال كلاي وهو ما زال يبتسم: «إن الجمال الأسود هو من نوع البوني الصغير الحجم.»

ويبدو أنه أراد بهذا تفسير كل شيء، ولكن تامارا لم يكن لديها فكرة عما يكونه هذا البوني فقالت: «أنا آسفة. ولكنني لا أفهم في أنواع الخيل مطلقاً.»

فتابعا السير ووقفا أمام اسطبل، ثم قال: «هذا هو الجمال الأسود.»

فنظرت، ثم ضحكت. نعم كان الحصان صغيراً رشيقاً جميلاً، ولكن لونه كان بنياً باهتاً. ولم تكن فيه بقعة واحدة سوداء.

تسلقت فرانسي بوابة الحقل، ثم امتطت الحصان. ألقت بذراعيها حول رقبة الحصان تحييه بحماس: «هالو، يا حصاني العزيز. لقد اشتقت إليك كثيراً، ولكنني أحضرت إليك حلوى، أنظر.» ووضعت قبضتها تحت أنف الحصان، ثم فتحت يدها تكشف عن قطعتين من السكر التهمها الجمال

الأسود على الفور. فأغرقت فرانسي في الضحك، ثم أدارت وجهها إلى أبيها: «أيمكننا أن نذهب بنزهة على الخيل، يا بابا؟ أرجوك إنني لم أركب الحصان منذ زمن طويل، أترى؟ إنه يريد أن يركض.»

فنظر كلاي إلى تامارا: «حسناً... لا أدري، يا حبيبتي، إن تامارا لم تركب حصاناً قط من قبل...»

فازدردت تامارا ريقها بذعر وهي تتصور نفسها على ظهر أحد هذه البهائم وهذا يعدو بها في السهول، ولكن فرانسي قالت: «آه، إن هذا سهل. إنها ستحب ذلك كثيراً. أليس كذلك يا تامارا؟» حتى إن ذلك لم يكن سؤالاً وتابعت تقول: «بإمكانها أن تمتطي البرق فهو ليس سريعاً جداً.»

«البرق.» لا يمكن أبداً أن تمتطي حصاناً يسمونه البرق.

وكانت على وشك أن تقول هذا عندما تدخل كلاي قائلاً: «كان البرق في البداية ذا عنفوان. ولكنه الآن عجوز كسول. وستكونين محظوظة إذا استطعت أن تحمليه على الهرولة.»

فارتجفت تامارا: «لا أريده أن يهرول. إن المشي هو أقصى سرعة أريدها.»

وأثبت البرق أنه حيوان جميل حقاً بلونه البني والبقعة البيضاء على جبهته، وقد أخذ يتشمم تامارا حين أخذت تلاطفه، ثم التهم من راحة يدها ما قدمت إليه من قطع السكر، وأسرجه كلاي وبعد اقناع قليل سمحت له بأن يساعدها في امتطائه وبعد أن استقرت

على ظهره قال لها: «أترين؟ الحصان العجوز بمثل وداعة الحمل.»

قاد الحصان حول الحظيرة وهو يطمئنها طوال الوقت. وبدا لها انها على علو كبير من الأرض في حال سقطت، ولكنها سرعان ما تمالكت نفسها وشعرت بالارتياح.

عندما تبددت أكثر مخاوفها، ناولها اللجام وأعطاها بعض التعليمات الأولية مثل كيف تجعل الحصان يتحرك، وكيف تدفعه إلى الإسراع أو الابطاء أو الوقوف. وكانت تحس بالسعادة في هذا كله.

وتملكها إحساس بالقوة وهي ترى نفسها قادرة على السيطرة على هذا الحيوان الكبير.

سألها بعد أن عادت إليه بعد جولة قصيرة: «هل ستكونين على ما يرام إذا تركتك وذهبت مع فرانسي لنسرج حصانينا؟»

كان خوف تامارا قد تبدد، ذلك أن جلوسها على ظهر الحصان الذي كان يتحرك تحت قيادتها، جعلها تتجنب الحذر. فقالت بغاية السعادة: «إنني بأحسن حال. إنني سأقود البرق حول المرعى أثناء الانتظار.»

فغاضت ابتسامة كلاي قليلاً: «لا بأس، إنما لا تغيبي بعيداً عن الحظيرة، فنحن لن نتأخر سوى دقائق معدودات.»

ويبدو أن البرق قد أدرك ما تريده تامارا حتى قبل أن تعطيه الإشارة لذلك، فأخذ يعدو خبباً مجتازاً المرعى. كان

ذلك بالنسبة إليها تجربة بهيجة. شعرت بأنها تحررت من قيودها الأرضية.

وكانت مسرورة بذلك كلياً عندما سمعت صوتاً يهتف باسمها. وبدون تفكير، نظرت من فوق كتفها إلى الخلف، وبعملها هذا جذبت اللجام بقوة، فوقف الحصان على قائمتيه الخلفيتين، لتجد نفسها تعلو في الجوّ ومن ثم، شملها الألم والظلام.

كان كلاي يراقب، وقد تملكه الهلع، البرق وهو يتراجع ثم يقف بينما كانت تامارا تسقط بعنف على الأرض، كان قد خرج من الحظيرة ليرى تامارا تختفي تدريجياً في الأفق على ظهر الحصان السريع.

لقد صرخ عند ذاك لفرانسي لكي تبقى مكانها، ثم ركض لنجدة تامارا. لم يكن يتوقع أن يجفلها هذا أو أنه سيجعلها تشدّ اللجام بهذا الشكل.

أوقف حصانه بسرعة، ثم قفز عنه ليركض إلى حيث كانت ملقاة على الأرض الصلبة. هبط بجانبها ثم تجمد في مكانه: «أووه...» كان نواحاً لا إرادياً صدر من أعماقه، إلا أنه لم يخفف من ذعره.

وصدرت آهة منه: «تامارا.» ومد يده يقلبها بحذر. كان قلبها يخفق، ولكن لم يبد عليها أنها تتنفس.

كانت غائبة عن الوعي وقد خفّ تنفسها. وبسرعة، أمال رأسها إلى الخلف.

تنهد بارتياح بشكل لا إرادي وهو يراها تتنفس ثانية، وهو يتمتم بلهفة: «تامارا، عزيزتي، استيقظي. افتحي عينيك. إنك بخير. يجب أن تكوني بخير. عزيزتي،

أنظري إليّ. لا أستطيع تحمل فقدانك، أنت أيضاً.»

إذا كانت إصابتها سيئة فهو لن يصفح عن نفسه أبداً. ما كان له أن يسمح لها بركوب ذلك الحصان.

ثم تحركت، كانت حركة لا تكاد تلحظ في البداية، ثم فتحت عينيها. واستطاع أن يرى الاضطراب في عينيها.

«كلا. ماذا؟ كيف؟» كان صوتها لا يعدو الهمس، ولكنها كانت واعية على الأقل كما أنها عرفته.

«أنا هنا، يا عزيزتي.» وارتجف صوته.

أليسيا... وكاد يخنقه الشعور بالذنب. ما الذي كان يفكر فيه؟ ما كان له أن يبادل مثل هذه الفتاة الصغيرة الساذجة، أيّ عاطفة. لقد كانت له زوجة هي أليسيا التي ستبقى حية في قلبه على الدوام. عليه أن يتوقف عما يقوم به، الآن وفي هذه اللحظة.

ولكن، رغم تبكيت ضميره له، فقد بقيت أفكاره مركزة على المرأة التي معه. تامارا التي أذابت جليد سنة حزن بكاملها.

سمع وقع حوافر حصان فرانسي، وشدّت الفتاة الصغيرة لجام حصانها الجمال الأسود فوقف.

«أبي، هل سقطت تامارا من على ظهر الحصان؟ وهل أصيبت بضرر؟»

قال يطمئن الطفلة بقوله: «نعم، لقد سقطت تامارا. ويبدو أنها لم تصب بضرر ما عدا الخدوش والرضوض. ولكن ما الذي تفعلينه هنا؟ لقد كنت أخبرتك ألاّ تتركي مكانك إلى حين عودتي.»

وإذ طرق هذا الموضوع، تذكر أنه غاضب كذلك من تامارا. فقال عابساً: «وأنت؟ أظنني طلبت منك نفس الشيء. فلماذا شردت عبر المراعي؟ هل ركض بك الحصان؟»

فهزت رأسها وقد امتلأت عيناها بالدموع: «كلا. إني آسفة. كنت فقط مستمتعة بالركوب إلى حد لم أنتبه معه إلى المسافة التي قطعتها.»

وسكتت وهي تشهق باكية ما جعله يفقد أعصابه فتمتم بصوت أجش: «لا تبكي يا تامارا. لا أتحمل رؤيتك تبكين.»

وعندما تأكد من أن صوته لم يعد يرتجف قال لفرانسي التي كان الندم يبدو عليها هي أيضاً: «أنا آسف يا طفلتي. لم أكن أقصد أن أتكلم معك بمثل تلك الخشونة، ولكن عليك أن تفهمي أنك عندما تكونين على ظهر حصان، فإن عليك أن تتبعي إرشاداتي، وإلا فلن أسمح لك بالركوب.»

«ولكنك تأخرت طويلاً يا بابا. فخفت أن تكونا، أنتما الاثنين قد تهتما أو سقطتما.»

وأدرك كلاي أنها على حق، فالذنب كان ذنبه هو أكثر منه ذنبها. فما كان يجب أن يقضي كل ذلك الوقت مع تامارا. كان عليه أن يعيدها إلى المزرعة فوراً، بدلاً من أن يتصرف كمراهق.

ماذا عليه أن يفعل الآن؟ من الواضح أن عليه أن يبعدها عن منزله.

وشعر لهذه الفكرة بطعنة ألم، وصدرت عنه آهة

عميقة فقال لفرانسي: «إنني آسف لاستيائك. وإنما تذكري دوماً ما أقوله لك. والآن أريد منك أن تعودي إلى المزرعة وتخبري جدتك بما حدث، اطلبي منها أن ترسل أحداً إلى هنا بسيارة الجيب ليأخذ تامارا إلى البيت.»

فرفعت تامارا رأسها وهزته قائلة: «كلا، سأعود على ظهر الحصان البرق.»

فحملق فيها حائراً ثم قال بغضب: «لا سبيل إلى ذلك. فأنا لن أضعك مرة أخرى على ظهر حصان.»

فقالت: «ولكن لا بد من ذلك. انني لا أريد أن أخاف، ولكنني سأكون كذلك إذا لم أعد إلى ظهر الحصان فوراً. لقد كان ذنبي أن وقعت وليس ذنبه.»

كان يعلم أن منطقها صحيح، ولكنه ما زال لا يريد لها ذلك. فقال: «أنا آسف، ولكننا ما زلنا لا نعرف درجة إصابتك. لقد كنت غائبة عن الوعي...»

فقاطعته: «كان ذلك لعدة دقائق فقط.»

«هذا يكفي ليدل على إصابة في الرأس. إنك معرضة للإغماء في أي وقت.»

فأصرت قائلة وهي تنهض واقفة: «ولكنني بخير يا كلاي. سأريك.» ولكنها ما لبثت أن ترنحت وقد انتابها الدوار. ولولا أن قفز وأمسك بها، لسقطت على الأرض.

قال: «أرأيت؟ إنك لن تعودي على ظهر حصان إلى المزرعة وحدك. ولكن، إذا شئت، يمكنك أن تعودي معي على ظهر حصاني الراقص الهوائي.»

فنظرت إلى الحصان الفحل ذي اللون الأسود اللامع وهي تتمتم وقد بدا عليها الذهول: «الراقص الهوائي؟»

فقال باسماً: «نعم، عندما يمشي، تشعرين وكأنه يرقص في الهواء.»

فضحكت قائلة: «إنه من كان ينبغي أن يسمى الجمال الأسود.»

فشعر بالارتياح لكونها أصبحت قادرة على المزاح معه كالعادة. وهذا يدل على أن لا ضرر أصاب رأسها. وقال لها مداعباً: «فهمت الآن السبب الذي جعلك تتخذين التعليم مهنة لك. فعقلك لا يعمل سوى بالواقع والمنطق.»

وقبل أن تتمكن من الجواب، قال لابنته: «اركبي حصانك وسيري أمامنا، يا فرانسي، إنما ببطء ولا تسرعي.»

كان حلماً رائعاً، ولكنه لن يخرج عن أن يكون مجرد حلم. فليس أمامهما سوى بقية هذا اليوم وغداً سيرسلها إلى منزلها في إيوا حيث صفها المدرسي مليء بتلامذة السنة الثانية الذين هم بحاجة إليها.

ولكن، هو أيضاً بحاجة إليها.

إنه بحاجة إلى ابتسامتها المتألقة على مائدة الفطور، وإلى ترحيبها الحار به عندما يعود من عمله. إنه بحاجة إلى أن تمنح ابنته المحبوبة الحنان الذي تغدقه عليها الآن. إنه يحتاجها إلى أن تهيمن على منزله كلياً...

آه، أتراه يخدع نفسه؟

إن تامارا فتاة بالغة الصراحة، فهي لم تحاول إخفاء مشاعرها، وهذا ما عرفه عنها جيداً أثناء الوقت القصير

الذي أمضته في منزله. إنها لن تكون سعيدة مطلقاً مع زوج لا يحبها وربما الحب هو الشيء الوحيد الذي ليس بإمكانه أن يمنحها إياه.

إنه يشعر بالمودة نحوها. كلا، بل شعوره أعمق من ذلك فهو يهتم بها كثيراً. ولكن أليسيا ستبقى دائماً حبه، زوجته، شريكة حياته. وهو لن يستمر أبداً في اعتبار نفسه رجلاً شريفاً إذا هو حرم تامارا الفرصة في العثور على رجل يحبها بالشكل الذي تستحقه.

www.elromancia.com

الفصل السادس

أحدث نبأ سقوط تامارا عن ظهر الحصان، بلبلة عنيفة في المزرعة. وعلى كل حال، بعد أن اغتسلت ووضعت بعض المطهرات على الخدوش التي في وجهها ويديها، وغسلت روث وجوانيتا ثيابها، خفت عنها وطأة ما حدث لها.

كانا جالسين على أرجوحة الشرفة، عندما فتح الباب الأمامي وخرج منه رجل ضخم قوي البنية منتفخ الصدر ذو بطن متدلية من فوق بنطلون الركوب الحائل اللون. وكان هو أيضاً يرتدي قبعة رعيان البقر الإلزامية، وكان حذاؤه الطويل رثاً إنما مريحاً دون شك، وقف كلاي قائلاً: «أبي.» وتقدم الواحد منهما نحو الآخر يتعانقان وكل منهما يربت على ظهر الآخر. وقال الأب ضاحكاً: «لا شك أنك تسخر مني، أليس كذلك؟ ذلك أنه لا يوجد مزارع وكل اسيجته مضبوطة، إذ انك ما أن تصلح سياجاً منها حتى ينهار الآخر.»

وضحك الإثنان، ثم استدار كلاي إلى تامارا التي كانت وقفت هي الأخرى: «أقدم إليك تامارا هاوستون يا أبي. تامارا، هذا هو أبي وولتر.»

مدت تامارا إليه يدها مصافحة، وهي تقول بخجل: «لشد ما أنا مسرورة بمقابلتك، يا سيد راتلدج.» كان والد كلاي ذا صوت هادر عالٍ، وقبضته بإمكانها أن تحطم بسهولة عظام يدها الصغيرة.

ولكن ابتسامته كانت صريحة وهو يقول: «ادعيني بإسم

باد فكلهم يفعلون ذلك. ها قد حان الوقت لكي يحضرك إبني لنتعارف، يقول إنك مدرّسة من إيوا.»

قالت: «نعم، إنني كذلك.» وأخذت تشرح له كيف حدث وجاءت إلى سان انطونيو لقضاء فصل الصيف لتعمل عند إبنه. وبطبيعة الحال لم تخبره عن سرها العميق في أنها والدة فرانسي وقد جاءت إلى تكساس تبحث عنها، وكانت تتابع قائلة: «انها طريقة رائعة للتعرف إلى مدينة لم تسبق لي رؤيتها، بالاضافة إلى اكتساب مزيد من المال. وهكذا انتهزت هذه الفرصة التي سنحت لي قبل أن يخطر لكلاي التراجع.»

فقال كلاي: «لم تكن تلك نيتي قط.» ولكنها لاحظت أن مزاجه قد أصبح حاداً ما جعلها تعجب لذلك، وكان هو يتابع قائلاً: «ففيها كل ما اتطلبه في مربية ومدبرة منزل.. ويتملكني الأسف حقاً لعدم تمكننا من الاحتفاظ بها بصورة دائمة.»

كان يتكلم وكأن رحيلها وشيك وليس بعد شهرين. هل من الممكن أنه يتمنى حقاً أن يكون عملها في بيته بصورة دائمة؟ إذا كان هذا صحيحاً، فما عليه إلا أن يسألها. فهي ستحصل على السكن والراتب السخي الذي يدفعه لها، إن بإمكانها أن تتابع التعليم في المدرسة قدر إمكانها، بالإضافة إلى اشتراكها في تربية ابنتها، وربما سيقع في حبها بالرغم من إصراره على أنه لن يتمكن من حب أي امرأة أخرى بعد زوجته.

كانت تامارا تدرك ميله إليها، حتى انه اعترف بذلك مرة، وإذا كان لتصرفه معها بعد ظهر هذا اليوم أي معنى، فهو أنه يهتم بها وبصحتها.

وأعادها إلى واقعها مجيء المزيد من الأشخاص. وهذه المرة كان أخو كلاي الأصغر وزوجته الجميلة.

وقال داستي وقد شهر كل منهما قبضته في وجه الآخر من باب المزاح: «أين كنت مخبئاً نفسك يارجل؟ لم أرك منذ اجتماع الأسرة في عيد الأم.» واستدار ينظر إلى تامارا. «ولا بد أن هذه تامارا. انك لم تخبرني أنها صغيرة رائعة الجمال.» ومد يده إليها. «مرحباً، انني داستي وهذه ليندا زوجتي التي ستقدم لي إبناً بعد شهر.»

وكانت تامارا قد لاحظت منذ لحظة دخولهما أن المرأة حامل ولم يسعها إلا الضحك لطريقة داستي في التعارف، فسألته: «هل تعلم فعلاً أنه صبي أم أنك فقط ترجو ذلك؟»

فضحك الزوجان هما أيضاً، وأجابت ليندا: «إننا نرجو ذلك.»

وفي هذه اللحظة، أقبلت فرانسي خارجة من الباب صافقة إياه خلفها، ثم ألقت بنفسها على عمها. وحملها داستي بين ذراعيه يرفعها عالياً وهو يهتف من كل قلبه: «ها هي ذي حلوتي، أمازلت تتطلعين إلى أن يكون لك إبن عم طفل؟»

فسألته فرانسي بلهفة: «ألم يأت بعد؟»

فأجابها وهو يضعها على الأرض: «لم يأت بعد، ولكنه لن يتأخر طويلاً، إذهبي وامنحي عمتك ليندا قبلة وقد تدعك تتحسسين رفس الطفل في بطنها.»

فركضت فرانسي نحو المرأة الحامل التي انحنت بصعوبة تحتضنها، ثم منحتها قبلة كبيرة وهي تسألها: «هل الطفل يرفس حقاً؟»

فأجابت ليندا وهي تمسك بيد الطفلة وتضعها على بطنها. «إنه يرفس طبعاً، تحسسي بنفسك.»

فأشرق وجه فرانسي وصرخت مبتهجة: «لقد رفس يدي.» وتساءلت قائلة: «متى سيخرج؟»

كانت تامارا تشعر بالدهشة إنما مسرورة للطريقة الطبيعية التي يتحدثون بها عن الحمل مع طفلة بعمر فرانسي، ذلك أن والديها والمعلومات القليلة التي عرفتها اخذتها عن اطفال آخرين وكانت مزيجاً من قليل من الحقائق وكثير من الخيال، وأجابت ليندا على سؤال الطفلة: «بعد أربعة أسابيع، فهو الآن يكبر ويقوى، ذلك أنه لكي يولد يلزمه الكثير من القوة.»

نظرت فرانسي إلى تامارا، قائلة بشيء من الزهو: «أنا لم أولد، وإنما انتقوني.»

فذهلت تامارا: «ماذا قلت؟»

فتولى كلاي الجواب بسرعة: «كلا يا فرانسي، لم يحدث الأمر بهذا الشكل، ألا تذكرين ما كانت اخبرتك به ماما؟ لقد ولدت بنفس الطريقة التي يولد بها غيرك من الأطفال، إنما لم تلدك ماما. فالسيدة التي ولدتك لم تستطع العناية بك، ولكنها احبتك كثيراً وأرادت لك أن تعيشي بأحسن حال، وهكذا عرضتك للتكفل، عند ذلك اخترناك أنا وأمك لتكوني ابنتنا.»

فغالبت تامارا دموعها التي اوشكت على التدفق. لشد ما كان كلاي وأليسيا إنسانين عطوفين، فقد جعلا فرانسي تأخذ عن أمها، عنها هي، فكرة حسنة.

أحد الأشياء التي كانت تعذب تامارا على الدوام، هو

الخوف من أن تكبر ابنتها وهي تظن أن أمها الحقيقية لم تكن تحبها أو تريدها. كان هذا الاحتمال وماذا عسى أن يكون تأثيره على نفس الطفلة، لقد كانت درست الكثير من علم النفس أثناء دراستها مهنة التعليم وعرفت مبلغ الدمار الذي يمكن أن يحدثه في نفس الطفل رفض أبويه له.

ولكن هذا لا يعني أنها كانت رفضت جنينها، لقد كانت أحبته ورغبت في انجابه بشكل بالغ. ولكنها هي نفسها كانت أقرب إلى أن تكون طفلة، وكانت ما تزال في المدرسة تحت إشراف ورعاية أبويها، وما كان بوسعها أن تعيل نفسها بعد وفاة زوجها، فكيف بإعالة طفلتها معها؟ وشردت بها الأفكار مبتعدة بها عن الآخرين.

وكانت متكئة على حد أعمدة الشرفة عندما برز كلاي بجانبها وهو يسألها قلقاً: «تامارا، اتريدينني أن اعيدك إلى سان انطونيو؟ أظن عليك ان تستشيري الطبيب. إن حالتك لا تبدو حسنة، إذ أن وجهك شديد الشحوب وأنا اعرف بالتجربة أن السقوط من على ظهر الحصان يسبب الكثير من الآلام حتى ولو لم يكن هناك كسور في العظام.»

فاستدارت تنظر إليه، ثم ابتسمت قائلة: «إن اهتمامك بأمري هو لطف كبير منك، يا كلاي. إنني بخير وكل ما في الأمر هو أنني أشعر بألم في رأسي، وأنا أفضل البقاء هنا.»

قال: «إنني لست لطيفاً، إنني قلق. فأنا لا استطيع احتمال ما إذا حدث لك شيء أنت أيضاً.»

(أنت، أيضاً)؟ إذن فهو كان يفكر في الحادثين اللذين

وقعا لها ولأليسيا. سقوط تامارا وإغماؤها القصير قد أعاد إلى ذاكرته كل شيء، وكان يتصرف تبعاً لذلك الرعب اكثر مما يتصرف تبعاً للرقة واللطف. وشعرت بخيبة أمل جارفة ولكن ليس لها أن تلوم سوى نفسها.

حاولت أن تبدد ما قد يكون ظهر في عينيها من أسف وهي تقول: «إنني أقدر اهتمامك هذا، ولكنني كنت في الحقيقة اتطلع إلى رؤية حفلة شواء تقليدية على الطريقة الأميركية القديمة في تكساس، وذلك مع أسرتك. وأنا لن أدع سقطة صغيرة تدمر تطلعي هذا.» وشعرت بالراحة وهي ترى صوتها قوياً ثابتاً دون أن يكشف شيئاً عن الإضطراب الذي في داخلها.

بان على وجه كلاي شيء من الحيرة وهو يقول: «لا بأس، إذا كنت واثقة من انك بخير، ولكنني اريدك أن تعديني بأن تخبريني إذا أحسست بشيء فيما بعد.»

فوعدته تامارا بذلك، ومالبث أن وصل المزيد من الأقرباء، وكان هذه المرة أخو كلاي الأكبر إذ أنه بدا أشبه ما يكون بأبيهم. وكانت معه إمرأة وبرفقتهما ولدان مراهقان.

حياهما كلاي بنفس الطريقة المرحة التي حيا بها شقيقه داستي وزوجته، ثم قدم تامارا إليهما: «تامارا، هذا الرجل الثقيل الوزن هو أخي جيم، زوجته كاتي، وولداهما جيم الصغير وسكوت، أقدم إليكم تامارا، يا رجال، وقد سبق لكم معرفة من تكون.»

فاتسعت عينا جيم الكبير: «هل هذه تامارا؟ ولكنها لا تبدو اكبر من ابني جيمي.»

كانت تامارا قد تعبت حقاً من ملاحظات الناس هذه، وقد رأت من ملامح كلاي أنه هو أيضاً كذلك، إذ قال ساخطاً: «فكيف إذن أكملت تعليمها الجامعي بالإضافة إلى قضائها السنتين الأخيرتين في التعليم؟»

ويبدو أن جيم أدرك خطأه فتراجع قائلاً وقد بدا عليه الندم: «آه، هذا صحيح. آسف ياتامارا. لا تهتمي كثيراً بما أقوله. فأنا ثرثار الأسرة. اساليهم.» وأشار نحو الآخرين المجتمعين على الشرفة فأوماوا جميعاً موافقين على كلامه بحماس.

فشعرت تامارا بالشفقة عليه فقالت ببشاشة: «لا تعتذر، ياجيم. فالمرأة عندما تخرج من طور المراهقة تحب أن تبدو أصغر سناً مما هي عليه.»

فقال: «شكراً.» وشعرت بنبرة الإرتياح في صوته، بينما كان يتابع قائلاً: «كل ما أريد قوله هو أنني لم يكن لدي معلمة مثلك عندما كنت طفلاً.»

فضحك الجميع وبهذا زال الاضطراب من الجو.

وسرعان ما شعرت تامارا حقاً انها اصبحت أحد افراد الأسرة. فساعدت النساء في اعداد الأواني والسلطة والأرغفة الفرنسية الطويلة، والتي حشوها بالثوم المهروس وسخنوها في الفرن. وعندما أصبح كل شيء جاهزاً، وضعوا هذا كله على مائدة مستطيلة ومن ثم ابتدأوا يشوون اللحم والدجاج.

علمت تامارا، أثناء عملها معهم، الكثير عن أسرة راتلدج وذلك من احاديثهم. كان جيم وداستي وأسرتاهما يسكنون في منزلين خاصين بهما في نفس المزرعة. وكانت كاتي،

مثل حماتها روث، سيدة منزل، ولكن ليندا كانت تعمل محاسبة في شركة في مدينة قريبة.

وشعرت تامارا بكثير من خيبة الأمل إذ لم يأت أحد منهم على ذكر زوجة كلاي الراحلة، أو الأسباب التي أدت إلى التكفل بتربية فرانسي. وتمنت لو يتكلمون، ولكنها لم تجرؤ على إلقاء أية اسئلة حول ذلك.

كانت مسرورة، على كل حال، أن كلاي قد أجرى الحديث عن مسألة حياة الطفلة، في حضورها، وهكذا لن تلجأ إلى الحذر من أن تكشف علمها بأن فرانسي ليست ابنته. كذلك أصبح بالإمكان فتح هذا الموضوع، فيما بعد، معه دون أن يشك بشيء.

وبعد أن أنهوا طعامهم، ذهب الرجال للتفرج على مباراة رياضية في التليفزيون بينما نظفت النسوة المائدة وغسلن الأطباق، أما فرانسي وابنا عمها، فقد خرجوا للنزهة على ظهور الخيل.

كان يوماً سعيداً رائعاً بالنسبة إلى تامارا. حتى رضوضها المؤلمة من أثر السقطة، لم تستطع أن تخمد سرورها. فهي لم تجلس قط من قبل إلى تجمع عائلي من قبل. فقد كان جداها توفيا منذ كانت طفلة صغيرة. ولم يكن لها أخوال أو اعمام أو أقرباء. ولم تكن الإجازات العائلية تعني شيئاً بالنسبة إلى والديها أو إليها، ولم تكن تعرف ما كان ينقصها إلا الآن. لقد تقبلتها أسرة كلاي المتراصة بين افرادها دون تحفظ، وتساءلت عما إذا كان كلاي يعلم مقدار ما يتمتع به من حظ، بهذا.

وعندما انتهى غسل الأطباق وعاد المطبخ إلى نظامه الذي كان عليه، توزعت النسوة في اتجاهات مختلفة. وكانت تامارا مازالت تشعر بشيء من عدم الارتياح لذهاب فرانسي على ظهر الحصان مع ابني عمها، رغم تأكيد كلاي والآخرين لها أن ذلك يحدث غالباً، وأن الغلامين يعرفان كيف يحافظان عليها.

ومع هذا، فقد قررت تامارا أن تتمشى قليلاً في انتظار عودتهم، فانسلت من الباب الخلفي متجهة نحو الإسطبلات.

توقفت قليلاً لتحمل هرة كانت تتبعها ثم تابعت طريقها، وعندما وصلت إلى الاسطبل، دخلت لترى إن كان الأولاد قد وصلوا ومازالوا في الداخل. لكنها لم تجد لهم أثراً، ولكن عندما وصلت إلى غرفة خلفية، سمعت أصوات رجال.

وإذ ظنت أنها قد تكون أصوات الغلامين، وقفت برهة تستمع. «... إنها تحب فرانسي جداً.» وأدركت أنه صوت كلاي.

وجاءها صوت جيم: «هذا مؤكد، فأنا لاحظت ذلك بنفسي. ولكن ما بك يا رجل. ماذا سيظن جيرانك؟ فأنت تعلم ماذا سيستنتج اصدقاؤك من هذا.»

كانا يتحدثان عنها، وازدادت تامارا اقتراباً.

قال كلاي: «لا يهمني ما قد يظنونه.»

فقال جيم بسخرية: «هذا واضح. ولكن الأفضل أن تبدأ بالإهتمام. فهي رائعة وجذابة جداً. حتى أن رجلاً مثلي متزوجاً منذ زمن طويل، يدرك هذا، فلا تجعلني أثور عليك إذا أنت ادعيت أنك لا تلاحظ ذلك. إن اقامتها

في منزلك سيثير الكثير من الأقاويل، هذا إذا لم يحصل حتى الآن.»

شهقت تامارا بدهشة وقد تملكتها خيبة الأمل، يبدو أنها غير مقبولة في أسرتهم كما كانت تظن. ولكنهم كانوا لطفاء جداً معها وودودين. فهل هذا مجرد تهذيب منهم نحوها لا غير؟

وجاءها صوت كلاي الغاضب: «لا أريد أن ادافع عن نفسي أمامك بالنسبة لأي شيء. وبصراحة، فهذا ليس من شؤونك.»

فضغطت تامارا على فمها بقبضتها تمنع نفسها من الصراخ. لم تكن تريد أن يتشاجر كلاي مع أخيه لأجلها حتى ولو كان أخوه هو المخطىء في هذا الأمر، كما أنها فكرت في أنه قد يكون محقاً في رأيه، ولكن ليس في وسعها أن تصحح الوضع بتقديم استقالتها والعودة إلى إيوا. فهي ستبذل كل ما في وسعها لكي تمضي هذا الصيف مع ابنتها الغالية.

وخافت وهي تسمع صوت جيم يعلو قائلاً: «لا تنسى أن تكساس ما زالت متعلقة بالتقاليد، والناس ليسوا منفتحين مثلهم مثل الناس في بقية أنحاء البلاد، ولكن ليس سمعتك فقط هي التي تهمني. إن سمعة تامارا هي الأكثر تضرراً. فهذا هو حال المرأة. وماذا بالنسبة إلى فرانسي؟ أتريد أن يعيرها اصدقاؤها الصغار بأن أباها لديه فتاة غريبة في منزله؟»

«أيها الوغد.» تصاعد صوت كلاي كالرعد وسط الشغب الذي تلا.

وتجمدت تامارا مكانها لا تعرف ماذا عليها أن تفعل. هل تظهر أمامهما توقفهما عن الشجار، أم تهرب بعيداً متظاهرة بأنها لم تسمع شيئاً؟

وقبل أن تستطيع التصرف، توقف الشغب ولم يعد يسمع سوى صوت تنفس ثقيل، ثم صوت جيم يقول متذمراً: «متى ستتعلم أن لا تهز قبضتك في وجهي فأنا اكبر منك. والآن، هل ستهدأ لكي أدعك تخرج؟»

ومرت لحظة لم تسمع أثناءها سوى اللهاث، ثم كلاي يقول: «نعم، أظن ذلك. إنما الأفضل أن تمسك لسانك.»

وحسب ما أدركت تامارا، كان جيم بعد اشتداده على كلاي قد أخذ الآن بالتراجع وهو يقول: «انني أضعك فقط أمام الأمر كما هو. ومنذ الآن فصاعداً أصبحت الكرة في ساحتك.» وسمعت صوت حذاء ثقيل على الأرض الخشبية، وهو يتابع قائلاً: «تعال والق نظرة على ثورنا الجديد. إنه رائع الجمال.»

ادركت تامارا أن هذا يعني أن عليها أن تبتعد قبل أن يراها احد فتتهم باستراق السمع، ولكن هذا الحديث بعث الإضطراب إلى نفسها. أترى سيوافق كلاي أخاه على ما قاله؟ وإذا فعل، هل بإمكانها أن تقنعه بالعكس؟

• • •

عندما وصل كلاي وتامارا وفرانسي إلى بيتهم في سان انطونيو، كان الوقت متأخراً، وكان الحديث

المزعج الذي تبادله كلاي مع أخيه جيم يتردد في أذنيه طول الوقت، وكان يعلم أن الحق مع أخيه. وقد منحه هذا سبباً آخر لكي يبعد تامارا عن منزله، ولكن، كم يكره هذه الفكرة. إنه سيفتقدها فهو لا ينكر ذلك، ولكن الأهم من ذلك أنها مدبرة منزل ممتازة ومربية جيدة لفرانسي.

كان قد صمم على التحدث مع تامارا عن الوضع هذه الليلة، ولكن عند وصولهم بدت من التعب والإرهاق بحيث صمم على أن يهتم هو بفرانسي.

لقد تصرف كفلاح جلف تنقصه الحساسية، ذلك أن تامارا كانت سقطت عن ظهر الحصان. وكان عليه أنه يحضرها إلى المدينة على الفور لإدخالها المستشفى وإجراء فحوصات لها.

بعد أن أطفأ المصباح بجانب سرير فرانسي، قرر أن يتحدث إلى تامارا غداً ليخبرها بأن عملها هنا ليس من المناسب استمراره.

استيقظ كلاي في الصباح التالي بقلب مثقل وتصميم عنيد على أن يخبر تامارا بأن عليها أن ترحل. حتى انه سيكاشفها بأن السبب هو أنه لا يثق بنفسه بالنسبة إليها، رغم أن قلة من رجال تكساس من يمكنه الإعتراف بمثل هذا الضعف المذل.

وهبط السلم لكي ينتهي من هذا الموضوع قبل أن يغير فكره، ولكنه قبل أن يصل، سمع صوت تحطم شيء ما في المطبخ، فركض مجفلاً صارخاً باسمها. وفي المطبخ وجدها فوق كومة من الأطباق على الأرض وهي تئن.

«تامارا، ماذا حدث؟ هل جرحت نفسك؟» وجثا بجانبها على الأرض وهو يتابع: «انظري إليّ يا عزيزتي. هل اصبت بضرر؟» وكان صوته يهتز قلقاً.

رفعت رأسها لكي تنظر إليه، وكانت الدموع تسيل على وجنتيها.

قال يسري عنها: «لا بأس عليك. استمري في البكاء إذا كان هذا يريحك. إنما اخبريني، هل أصبت بضرر؟»

فهزت رأسها قائلة: «كلا، ليس هذا النهار.»

لم يكن هذا جواباً مطمئناً فسألها: «ماذا تعنين بقولك، (ليس هذا النهار؟)»

«أعني... أعني أني أشعر وكأن ذلك الحصان قد... قد داسني بحوافره ولم يلق بي فقط.» وكانت تتلعثم بين الشهقات. «والآن... الآن قد حطمت اطباقك الثمينة. انني... انني لا اصلح لشيء.»

وأخذت تنوح مرة أخرى، ولكن كلاي كاد يضحك لشعوره بالإرتياح، وقال: «تلك الأطباق من الممكن شراء بديل لها، وغير صحيح أنك لا تصلحين لشيء، انك تشعرين بالتعب من أثر سقطتك أمس، وهذا أمر متوقع. وما كان لك حتى أن تنهضي من فراشك.»

قالت: «ولكن عليّ أن اعد الإفطار لك ولفرانسي.»

فقال: «يمكننا، أنا وفرانسي، تدبير إفطارنا بنفسنا، إنني ساعيدك إلى غرفتك، وإذا لم تكوني حساسة للأسبرين فإن لدي منها حبوباً زائدة القوة وهي ستساعدك في التخلص من الألم، وغداً ستشعرين بالتحسن.»

فقالت متأوهة: «غداً، ولكن عليّ العناية بفرانسي اليوم.»

«سآخذها معي إلى العيادة. إن لدينا غرفة إضافية هناك قد أعددناها غرفة لموظف. وفيها تلفزيون، ويمكنها أن تأخذ معها ما تحب من الألعاب والدمى لتتسلى بها، ليس لديها أي اعتراض فقد فعلت ذلك من قبل.»

استمرت تامارا في الاحتجاج، ولكن كلاي قال محذراً: «حذار من حطام الأطباق.» وسار بها صاعداً السلم إلى غرفتها، وهو يقول: «سأوقظ فرانسي واطلب منها أن ترتدي ملابسها وتختار ما تريد من لعبها لتأخذها معها.»

كان جوابها الوحيد هو أن تمتمت تقول، لا بأس. لقد كانت المسكينة متضررة صحياً وعاطفياً من جراء السقطة تلك. وشعر كلاي بالتعاسة والشعور بالذنب. لو لم يفزعها بمناداتها باسمها، لما وقف الحصان على قائمتيه الخلفيتين.

وفي غضون دقائق قليلة، كانت تسبح في ما يشبه الحلم. وعندما سمعته يتمتم برقة: «نامي جيداً، يا حبيبتي.» ظنت نفسها تحلم.

الفصل السابع

في الأيام الثلاثة التالية، بقي كلاي يذكر نفسه برزانة بأنه حالما تتعافى تامارا من أثر السقطة، سيقوم بإرسالها إلى بيتها بإيوا. حتى انه ألّف في ذهنه الجمل التي سيقولها لها، ثم بقي يضيف عليها جملة من هنا وينقص كلمة من هناك، تماماً بالطريقة التي يفحص بها ضرساً مؤلماً. ولكنه لم ينجح إلا في بعث المزيد من الاضطراب في تحركاته وإطالة أمد العذاب.

لم يكن يحتمل فكرة إيذاء شعورها أو جعلها تظن أنه لا يريدها، ولا يحتاج إليها. ولكنه أيضاً لا يستطيع الاعتراف بأنه يريدها حقاً وفي أمس الحاجة إليها إلى الحد الذي يجعله يبعدها عنه.

لم يكن مفترضاً أنه يريدها في حياته، ولم يكن هناك سبب يجعله يتطلع إلى لقائها في منزله بعد انتهاء عمله اليومي. أما أن يجد المنزل فارغاً موحشاً أثناء خروجها في إجازاتها الأسبوعية، فهذا كلام فارغ. كما أن ليس ثمة داع لذلك الفزع الذي شعر به عندما رآها منهارة على الأرض. كانت تلك مشاعر اختص بها شخصاً محبوباً. هي زوجة يحبها. أليسيا، وليس تامارا. فهي مجرد فتاة تقوده إلى الخبل. فلماذا إذن يستمر في إشاحة وجهه عن طلبات للعمل

عنده من مدبرات منزل كان يرسلها إليه مكتب التوظيف؟

كانت أهمية تامارا تزداد بالنسبة إليه يوماً بعد يوم، وهذا لن تكون نتيجته سوى تحطم القلوب.

كلا، لقد حان الوقت للكف عن كل هذا الإرجاء، وإنهاء هذا العبث الذي يقوم به، وهذه الليلة هي الفصل. إن رأس تامارا لم يعد يؤلمها، رغم أنه ما زال يراها تجفل كلما حركت رأسها. كما أن الرضوض قد بهت لونها. ثم هناك ما هو أهم من ذلك وهو أن فرانسي قد أصبحت أكثر اعتماداً عليها في شؤونها.

وتجاهل مشاعر الوحشة التي انشبت مخالبها به لدى فكرة خسارته لها وأرغم عقله على مواجهة الأمر.

اتصل بالمنزل أثناء فترة الغداء، فأجابته تامارا. كان صوتها خفيضاً حتى على الهاتف، وكان في هذا الكفاية لكي يسكت ويدع الأمور كما هي. فليدع الطبيعة تأخذ مجراها وبعد ذلك سيحاول إصلاح ما سيحصل من ضرر. ولكنه، بدلاً من ذلك قال: «إنني أتصل بك لأخبرك بأن لا تهتمي بإعداد العشاء هذه الليلة. فأنا أحب أن آخذك للعشاء في الخارج إذا أنت شعرت برغبة في ذلك.»

فأجابت بلهفة: «إنني دوماً أحب تناول الطعام في الخارج.» وبدت له كطفلة وعدت بشيء محبب إلى نفسها.

«هذا حسن، سأحجز مائدة إذن في أحد المطاعم على شاطىء النهر. هل تناسبك الساعة السابعة؟ سأكون في المنزل حوالي السادسة.»

«هذا عظيم وسأكون أنا وفرانسي جاهزتين حين قدومك.»

بوغت لقولها هذا وأسرع يقول دون تفكير: «كلا، كلا يا تامارا. إنني سأحضر جليسة أطفال لتجلس مع فرانسي، وسأحضر معي طعاماً تحبانه.» وانخفض صوته إلى درجة الهمس وهو يتابع: «هذه المرة سنكون فقط أنا وأنت.»

ما هذا؟ إنه يبدو وكأنه موعد... ولكن ليس هذا ما كان يهدف إليه. كان يريد فقط أن يوجد جواً ساراً ودوداً وهو يخبرها بأن عليها أن ترحل، وبهذا لن تفكر في أنه يطردها من عملها بشكل جاف مستعجل.

وتمتمت هي تجيبه: «أحقاً؟ إن هذا... هذا لطف كبير منك. سأراك إذن حوالي السادسة.»

أعاد كلاي السماعة إلى مكانها ثم مر بيده على وجهه، ما الذي فعله؟ لماذا يدور رأسه إلى هذا الحد كلما اقترب منها أو سمع صوتها؟ كان يحاول أن يبعدها عن حياته وليس أن يدخلها إليها.

والآن، ربما هي تفكر في أنه يشعر باهتمام شخصي بها، بينما هذا غير صحيح. حسناً، إنه صحيح ولكنه لا يعدو أن يكون شعور صداقة، وهنا وخزه ضميره. حسناً، إن شعوره نحوها قوي ومزعج حقاً، ولكنه مجرد شعور عابر لا أثر للحب فيه.

وما الذي يجعلها ترغب في الخروج في موعد معه؟ فهو يكاد يكون في سن عم لها. وقد كان متزوجاً قرابة الأربعة عشر عاماً قبل أن تموت

زوجته. ربما تأثرت بمكانته في المجتمع وبثروته التي لا بأس بها.

فهو سيعيدها إلى إيوا بالتأكيد.

• • •

أمضت تامارا طيلة النهار تعد نفسها للخروج مع كلاي وقد تملكها السرور. غسلت شعرها ورفعته عالياً فوق رأسها، وبعد دقائق من التنقيب في صندوق زينتها، وجدت أنبوباً يحوي كريم للوجه، فوضعت منه على وجهها بسخاء.

لم يسبق أن طلب منها كلاي من قبل الخروج معه من دون فرانسي. وهذا يعني طبعاً أنه حنون عليها منذ سقطتها تلك.

كان في تلك الأوقات سيداً غاية في التهذيب ما ضايقها نوعاً ما.

وانتابها شعور بالذعر، إذ خافت أن لا يكون منجذباً إليها، وعندما كلمها فجأة في الهاتف طالباً منها الخروج معه، لم تفهم، ولكنها لم تشأ أن تتساءل عن السبب في عمله هذا، لقد كانت هذه هي البداية، وهي عازمة على أن تستفيد منها إلى أقصى حد.

اختارت أن ترتدي ثوباً جديداً اشترته هنا في سان انطونيو وطرازه يشبه ثوب عرس مكسيكي.

كانت تامارا من السرور والفرح عندما كانا جالسين إلى مائدة صغيرة في مطعم بحري. اخذت تثرثر مسرورة طوال المساء. ويبدو أن خطته في أن يخبرها في هذه الجلسة الرسمية في المطعم، بأنه لم يستطع مداومة

توظيفها عنده إلى نهاية هذا الصيف، يبدو أن خطته هذه لن تنجح.

ليس بإمكانه أن يباغتها بهذا الخبر الآن بعد سعادتها بهذا الموعد الودي الذي لم يكن يقصده، هذا عدا عن أنه اسعده هو أيضاً، ولولا وخز ضميره الذي كان يثقل نفسه، لكانت سهرتهما هذه رائعة.

كانت تشكره على الدوام لأقل خدمة يؤديها لها أو مجاملة، ما يجعله يشعر بالرضى عن نفسه.

حتى الآن، وهو يعلم أنه على وشك أن يفصلها من عملها، هذه الفكرة كانت مؤلمة إلى حد لا يطاق. ولكن عليه، لهذا السبب بالتحديد، أن يقوم بالأمر الفصل هذه الليلة. وإذا هو أرجأ الأمر هذه المرة أيضاً، فإنه يخاف ألاّ يقوم به أبداً بعد ذلك.

قال: «إذا كنت قد انتهيت من تناول الطعام، ربما تحبين أن نتمشى قليلاً على ضفاف النهر.»

فأجابت دون تردد: «هذا يسرني جداً.»

بعد أن دفع كلاي الحساب، أخذا يتمشيان، في ذلك الممر المضاء خلال المتاجر الجميلة، والمحلات التي تعرض الصناعات اليدوية، والمعارض الفنية، وفي الوقت الذي عادا فيه إلى حيث أوقفا سيارتهما، كانت المتاجر قد ابتدأت تقفل ابوابها.

في طريقهما القصير إلى البيت، تنهدت تامارا وهي تقول: «اشكرك، يا كلاي.»

فنظر إليها وسألها: «تشكرينني لماذا؟»

فابتسمت: «لهذه السهرة الرائعة. كانت مميزة

تماماً، الطعام، الجلسة، التفرج على كل تلك المتاجر.»

«أريد أن اتحدث إليك عندما نصل إلى البيت، يا تامارا.»

وقبل أن تتمكن من الجواب، استدار إلى طريق البيت ثم توقف وهو يقول: «أريد أن آخذ جليسة الأطفال إلى بيتها، ولكنني لن أتأخر. فانتظريني من فضلك في غرفة الجلوس.»

فحملقت فيه قائلة: «غرفة الجلوس؟» كانت تلك الغرفة فسيحة رسمية لا يستعملونها إلا نادراً عندما يجيئهم زوار. «ألا تعني غرفة المكتبة؟»

«كلا، إنني افضل غرفة الجلوس، وربما لا تمانعين في صنع فنجان من القهوة.» وفتح باب السيارة ليخرج، فاجتاحت تامارا موجة من القلق، ما الذي جرى؟ أتراها أخطأت بشيء؟

لا يبدو عليه أنه غاضب منها، ولكنها لاحظت أنه كان طوال السهرة مشغول البال قليلاً.

أدركت أن استجوابه الآن لن يعود عليها بأي فائدة وبدلاً من ذلك، حالما ابتعد آخذاً معه جليسة الأطفال، صنعت القهوة التي طلبها، وكانت قد وضعت لتوها صينية القهوة الفضية على المنضدة أمام الأريكة، عندما سمعته يدخل إلى المنزل.

وخلال ثوان، كان يقف في العتبة، فبدت على وجهها ابتسامة مرتجفة وهي تقول: «لقد صنعت القهوة. هل تريدني أن أسكب لك فنجاناً؟»

فتقدم نحوها إنما لم يبادلها الابتسام: «نعم، من فضلك.»

سكبت القهوة وناولته الفنجان، ثم سكبت فنجاناً لنفسها وجلست على الأريكة، ومرت لحظة لم يتكلم فيها أي منهما. لماذا لا يقول ما يريد وينتهي؟

«تامارا...»

«كلاي...»

تكلم الإثنان فجأة في وقت واحد، ثم سكتا معاً، فقال كلاي: «آسف. تكلمي أنت أولاً.»

فهزت رأسها: «كلا، أنت أولاً، كنت فقط أريد أن اسألك عما تريد أن تكلمني.»

فأضاف القشدة إلى قهوته، ولاحظت أن الملعقة الفضية قد اهتزت قليلاً في يده. ثمة شيء يجعله عصبياً، وأخيراً تنحنح قائلاً: «لقد انتبهت مؤخراً إلى أن ثمة كلاماً بالنسبة إلى بقائك هنا.»

فاجفلت، هذا هو الأمر إذن. فهو مستاء لما كان جيم قد أخبره به، فقالت: «نعم، أعلم ذلك. فقد كنت ذهبت إلى الاسطبل يوم الأحد للبحث عن فرانسي وسمعتكما، أنت وجيم، تتحدثان. إني آسفة، فقد كان عليّ أن اظهر نفسي حينذاك، ولكن الأمر فاجأني وقد انتهى بسرعة...»

فبدا عليه الإجفال إنما ليس الغضب: «إذن، فأنت قد سمعت ما قيل. ان الحق معه، كما تعلمين، فإن بقائك هنا، يجعلنا في وضع مشبوه. وكان عليّ أن أنتبه إلى هذه النقطة قبل أن اطلب منك البقاء، ولكنني لم اكن أظن أن العثور على مدبرة منزل دائمة سيأخذ كل هذا الوقت.»

هل تراه سيفصلها من العمل؟ وشعرت بفنجان القهوة وصحنه يهتزان في يدها فوضعتهما على المنضدة. لقد تملكه السخط يوم الأحد الماضي عندما أتى أخوه على الموضوع. وبعد، فهما لم يكونا يقترفان أي خطأ.

أخذ كلاي يراقب التعبير الذي أخذ يتغير على ملامح تامارا من الفضول إلى التفهم إلى الهزيمة.

رفعت نظراتها إليه وقد امتلأت عيناها حزناً وهي تقول: «هل تطلب مني الرحيل؟»

«يا عزيزتي، أنا... أنا لا أريد أن اخسرك، ولكن يبدو أن لا خيار لي في الأمر، يجب أن تعلمي أنني... إذا كان علي أن احضر إمرأة لتعيش هنا، فهي ستكون زوجتي.»

وتجاوبت كلماته الأخيرة في هذا السكون الغامر. وإذا بصوت تامارا يجيئه من خلفه، يشوبه الخجل والتهيب: «لماذا لا تتزوجني إذن، يا كلاي؟»

فصعق وكأنما مسه تيار كهربائي، لا بد أنه لم يسمع جيداً. لماذا تريد أن تتزوجه بعد أن أوضح لها أن ليس بإمكانه أن يحبها؟

واستدار ببطء ينظر إليها ليعلم مما ارتسم على ملامحها أن ما سمعه كان صحيحاً.

سألها: «لماذا تفكرين بأن تكوني زوجتي، يا تامارا؟»

«لأنني... أحبك.»

لم يستطع أن يتكلم إلا بعد أن اخذ نفساً عميقاً: «هذا أجمل شيء سمعته من أحد منذ وقت طويل جداً. لشد ما أشعر بالزهو، ولكن، ألا تظنين أن ما تشعرين به نحوي قد يكون مجرد افتتان، يا عزيزتي، وليس حباً؟»

فهزت رأسها، ولكنه استمر يقول: «صدقيني أنني لا أريد أن أقلل من شأن عواطفك، ولكنك لم تعرفيني إلا منذ مدة قصيرة جداً. وقد يكون شعورك هو الأسى لأجلي لأنني أرمل وأربي ابنتي وحدي، وأنا أعرف مقدار ولعك بفرانسي...»

فقاطعته: «إنني مشغوفة حباً بفرانسي، ولكن ذلك ليس له علاقة بشعوري نحوك.»

تملكه الحنين إلى ما تقدمه له بسخاء. هل من الجبن حقاً أن يتقبل ذلك منها؟ إن عليه أن يقنعها بأنها تسيء فهم مشاعرها.

قال لها: «ربما وبسبب عيشنا معاً، أنا وأنت وفرانسي، تظنين نفسك واقعة في غرامي. ولكن يبدو أنك نسيت شيئاً.»

سكت، وقد شعر، للحظة، أن ليس بإمكانه الإستمرار. إذ لم تكن هناك وسيلة يقول فيها ما يريد قوله، دون أن يبدو فظاً عديم الإحساس، وإذا بها تقول ذلك عنه: «تعني أنني نسيت أنك لا تحبني.» كانت تقول ذلك بلهجة فاترة «إنني لم انس هذا، يا كلاي، أنا لا أريد أن أقول ان هذا غير مهم، ولكنني لا أرى سبباً يجعلنا غير سعداء في حياة زوجية تجمعنا. على كل حال... إنني أعلم أنك مازلت حزيناً لخسارتك الزوجة التي كنت شديد الحب لها، ولكنني اعلم أيضاً انك تهتم بي.»

فأسرع يقول: «طبعاً أنا أهتم بك. أهتم بك كثيراً جداً. ولكنك تستحقين أكثر من ذلك.»

فقالت تجاريه في ذلك: «ربما الأمر كما تقول، ولكن قليلاً من الناس يحصلون على ما يعتقدون أنهم يستحقونه. وحسب رؤيتي للأمر، إن أمامي أمرين، فإما أن انتظر العريس المجهول، وإما أن اسلم قيادي إلى شخص لن يتمكن من تقديم ما تقدمه أنت لي من اخلاص ورعاية، ولهذا افضل أن اجرب حظي معك.»

ما الذي بإمكانه أن يجيبها عن ذلك، يبدو أنها تعرف تماماً ما الذي تريده. ولكن هل بإمكانها أن تدرك كم سيخيب أملها؟ إنه يعرف مقدار السعادة التي تنتج عن حب متبادل.

ولكن ليس بإمكانه أن يوفر لتامارا مثل تلك السعادة الزوجية لأن قدرته على مثل ذلك الحب قد ماتت مع أليسيا. فهل لديه الحق في أن يحرم تامارا من فرصة العثور على رجل يحبها بذلك الشكل؟

قال لها: «أريد أن اتأكد من انك تدركين جيداً ما أنت مقدمة عليه. ذلك انني إذا كنت سأتزوج ثانية، فإن القسم الزوجي الذي سألتزم به سيكون هو نفسه الذي سبق واقسمته عند زواجي الأول وهو أن أحافظ على هذا الرباط، حتى يفرقنا الموت. فأنا لا أريد أن أتعرض، أنا وفرانسي، إلى خسارة أخرى مفجعة للأم والزوجة، فإذا لم تكوني تريدين حقاً أن تمضي بقية حياتك معنا، فتفضلي الآن بحزم أمتعتك واتركينا بسلام.»

فأومأت برأسها قائلة: «أنا طبعاً أريد أن يكون ذلك حتى آخر يوم من عمري ولا أريد غير ذلك.»

ومع أنها كانت تتحدث بهدوء، رأى كلاي مما ارتسم

على وجهها أنها قد جرحت، فشتم نفسه خفية لحماقته، فقد كان فظاً خشناً حيث لم يكن يريد سوى أن يكون صريحاً معها لكي لا تقدم على شيء تندم عليه فيما بعد، عند ذلك قال: «سامحيني إذا كنت اتحدث بمثل هذه اللهجة العملية وكأن الأمر مسألة مقايضة وليس زواجاً، الذي أريد أن أقوله هو ان لك في نفسي مكانة خاصة. فأنا مهتم بك، ولا أريدك أن تقدمي على عمل قد تندمين عليه.»

كان الإضطراب يعلو وجهها، ولكن صوتها كان قوياً واضحاً وهي تقول: «هنالك شيء واحد فقط نحوك، والآن قد أصبح الأمر يعود إليك. هل تريدني زوجة أم لا؟»

فتنهد قائلاً: «نعم، أنا أريدك. فقد دخلت حياتي عندما كان اليأس يتملكني من التخلص من احزاني. فأعدت النور والضحك إلى حياتي، ومنحت ابنتي السعادة والأمان اللذين افتقدتهما منذ ماتت أمها، إن زواجنا سيكون اتحاداً بكل معنى الكلمة، وليس زواج مصلحة، كما يقال، ومقابل هذا، اعدك بأن اهتم بك باستمرار واكرمك واكون زوجاً أميناً مخلصاً.»

كان عرضها الزواج عليه أمراً غير مألوف، وكان يمكن أن يضحك منها، أو يشعر بالإنزعاج. ولو أنها كانت فكرت بالأمر قبل أن تنطق به، لما تجرأت على ذلك، ولكن هذا لم يخطر ببالها قط إلا بعد أن ذكر احتمال اتخاذه زوجة، عندذلك خرج هذا السؤال منها بسرعة خاطفة ودون تفكير.

همس قائلاً: «انك تعلمين الآن تأثيرك عليّ. أرجو ألاّ تصري على خطبة طويلة الأمد.»

فهزت رأسها قائلة: «هل أربعة أيام مدة طويلة؟»

فنظر إليها ذاهلاً وقال: «أربعة؟ ولكن ليس بإمكانك التحضير لحفلة الزفاف في أربعة أيام.»

قالت: «ولِمَ لا؟ إنني لا أريد أن استعجلك، ولكنك قلت...»

فتبدد الذهول من وجهه، ورق صوته وهو يقول: «إنني لا أرى ذلك موعداً قريباً ولكن ألا تريدين أن تتزوجي في موطنك في إيوا؟ وترتدي ثوب زفاف أبيض طويل مرصع، هذا إلى المدعوين وكل أسرتك الذين سيكونون هناك؟»

فكرت في أن ليس هذا ما تريده، ولكن أتراه يريد هو ذلك؟

فقالت بجمود: «إن موطني هنا في سان انطونيو معك الآن، ياكلاي. ولكن إذا كنت تفضل أن نقيم الإحتفال في إيوا...»

فقاطعها: «أولاً، دعينا نتأكد من شيء واحد، وهو أنني أريد أن نتزوج بأسرع وقت ممكن، ولكنك لا بد تريدين عرساً خيالياً وعشاءً حافلاً، بينما أمك تمسح دموعها عندما يسلمك أبوك لعريسك.»

فقالت بمرارة: «لقد سلمني أبي وانتهى من أمري منذ وقت طويل، أما دموع أمي فهي بسبب خسارتها لأحلامها وليس خسارتها لابنتها.»

فبدا الفزع على وجه كلاي، فأدركت تامارا أنها تدوس على أرض خطرة، ولم تشأ أن يسألها تفسيراً لما قالت، فسارعت تصلح ما خربته: «الذي اعنيه هو أنني وأبواي مازلنا متنافرين منذ عدة سنوات، ولم أعد إلى موطني منذ دخلت الكلية، وليس لدي أقرباء آخرون ولكن الذي أريده هو أن يكون عرسي... إذا لم يكن في

ذلك إزعاج، أريد أن نتزوج في مزرعتكم بحضور جميع أفراد أسرتك.»

قال: «إذا كان هذا حقاً ما تريدينه، فهو يسرني جداً، وكذلك... أبي وأمي، إنني لا أحب تلك الرسميات المتكلفة التي تبدو كمشهد على المسرح وليس احتفالاً محترماً يربطنا مدى الحياة.»

«هل كان لك ولألِيسيا عرس كبير؟»

لقد انطلق هذا السؤال منها قبل أن تتمكن من كبحه. ولكن يبدو أن كلاي لم يهتم. «نعم، لقد كنت أريده عرساً بسيطاً صغيراً، ولكنها لم تصغِ إليّ، فقد كانت طوال حياتها تحلم بعرس كبير مهيب، ولم يكن امامي سوى الموافقة.»

نعم، كان لابد أن يوافق، فهو من المراعاة لشعور الآخرين، وعدم الأنانية.

وحيث أنها اتت على موضوع زواجه الأول، فقد كان هناك موضوع ثانٍ كان بحاجة إلى بحث، ولكنه كان صعباً عليها التطرق إليه. أخذت نفساً عميقاً، ثم قالت: «كلاي، هل سيكون بإمكاننا إنجاب اطفال؟»

فشعرت به يجفل، ولكن صوته كان هادئاً وهو يجيب: «هل تريدين هذا؟»

فاعترفت قائلة: «أنا... أنا أريد أن يكون لدينا أطفال ولكن إذا كنا... أعني إذا كان علينا أن نتكفل اطفالاً فليس لدي اعتراض على ذلك.»

لقد جاءها الحظ للمرة الثانية في أن تربي ابنتها. فإذا لم يكن بمقدور كلاي أن يمنحها أولاداً، فسيكون لديها الحق في أن ترعى أولئك الذين هم بحاجة إلى بيت وأبوين

محبين، كما سبق واتخذ هو وزوجته فرانسي، قال ضاحكاً: «آه، إنني اعرف ما تقصدين، إنك تظنين، لأننا نربي ونرعى فرانسي، أننا، أنا وانت، لا نستطيع الإنجاب. إنني آسف، كان علي أن أوضح هذا الأمر، ولكنني أنسى دوماً أنها ليست من لحمي ودمي.»

سكت برهة ثم عاد يقول: «حسب ما أعرفه، فأنا بإمكاني إنجاب الأطفال. ولكن بعد زواجي وأليسيا بسنتين، نشأ في بطن أليسيا ورم ليفي، ما استوجب عملية استئصال، ولقد حطمها هذا، ولكنني شعرت بالإرتياح لأن الأمر اقتصر على هذا وبقيت هي سالمة.»

كان صوته وهو يتكلم قد أصبح خشناً، وأدركت تامارا أن ذكريات ذلك الوقت العصيب كانت قاسية حين يكون على زوجته الرائعة الجمال أن تضحي بإنجاب الأطفال لكي تتمكن من العيش، واذا بها تموت بعد ذلك وهي مازالت شابة.

وتابع قائلاً: «بعد ذلك بسنوات، كنا مشغولين بمتابعة الدراسة لنيل شهادات أعلى ومن ثم ابتدأنا في العمل بمهنتينا، ولكن عندما استقرت حياتنا، بدأنا في البحث عن طفل نتكفل بتربيته والاعتناء به، ثم وجدنا فرانسي، وكانت طفلة جميلة أكثر مما كنا نتمنى، فلو كانت ابنتنا حقاً لما أحببناها اكثر.»

سرت كثيراً في أعماقها لحصول ابنتها، التي ارغمت هي على التخلي عنها، على هذه الأسرة الرائعة التي أحبتها كإبنة لها حقيقية. وقالت: «إذن، إذا كنت توافق، فأنا أريد أن يكون لنا أخوة لفرانسي.»

فقال: «ليس أحب إلي من ذلك.»

وفيما بعد، عندما جلست تامارا في غرفتها، عادت بها الافكار إلى حديثهما ذاك عن تربية فرانسي. لم تكن تريد التفكير في هذا الأمر. فهو موضوع يسبب لها الكثير من العذاب، هل من المفروض أن تخبر كلاي أنها والدة فرانسي؟ أم تترك الموضوع ولا تقول شيئاً؟

لم يكن بإمكانه أن يعرف ذلك إلا إذا هي اعترفت به فليس هناك سوى والديها وكذلك بول والاس الذين يعلمون بأنها انجبت طفلاً، ومن المؤكد أنهم لن يخبروا أحداً، وهي لم تتصل بوالديها منذ فترة طويلة، وكان ذلك عبارة عن حديث هاتفي قصير تمنت لهما فيه عطلة سعيدة.

كانت تحية جوفاء حيث أن الحديث كله كان بارداً متكلفاً، أما بول والاس فكان مرتبطاً بشرف المهنة فلا يفشي سرها.

لم يكن لدى والديها فكرة عن أنها تبحث عن ابنتها، وسيكون رعبهما بالغاً لو أنهما علما بذلك، حتى انهما لا يعلمان أن تامارا في سان انطونيو، ومع ذلك فستكتب إليهما غداً ورقة تبلغهم فيها بأنها ستتزوج.

أتراها ستسبب أي ضرر لكلاي بإخفاء سرها عنه؟ لم تستطع أن ترى سبباً لذلك. وليس ثمة حاجة لفرانسي بأن تعلم بأنها هي أمها الحقيقية. كل ما كانت تريده تامارا هو حب ابنتها لها، ولو كانت أليسيا ما زالت حية لكان هذا من تامارا شيئاً حقيراً، ولكن أليسيا هي ميتة الآن، وعليها هي أن تمنح ابنتها كل الحب الذي يحتاجه الأطفال.

لقد افلحت تقريباً في إقناع نفسها بأن لا ضرر من وراء

حفظ سرها، ولكن ماذا سيكون شعور كلاي لو أنه علم فيما بعد بما كانت تخفيه عنه؟

لم يكن عليها أن تتساءل. إنها تعلم انه سيثور غاضباً وسيعتبر ذلك شيء لا يغتفر، إنه لن يتمم هذا الزواج إذا ما اكتشف أن تامارا كانت تكذب عليه، وسيتألمون، عم الثلاثة، لهذا. إن لدى تامارا الكثير من الحب تغدقه عليهما، فما الذي ستجنيه من وراء إثارتها للعاصفة التي ستدمر مستقبلهما كلياً، بينما، بصمتها، سيعيشون جميعاً بعد ذلك بسعادة تامة؟

كلا. إنها لن تعترف برباط الدم الذي بينها وبين فرانسي، إنها مغامرة غير مأمونة.

الأفضل إذن ألاّ يعلم كلاي الحقيقة، وستجاهد هي في سبيل حفظ ذلك السر.

الفصل الثامن

أشرقت شمس صباح الأحد متألقة رائعة على مزرعة راتلدج. وأخذت تامارا تتأمل صعود الشمس في قمة السماء بينما هي ما زالت في سريرها النحاسي الأثري في إحدى غرف الطابق الثاني من منزل المزرعة، وقد تملكتها السعادة.

اليوم هو يوم عرسها. وبعد ساعات قليلة فقط سيكون اسمها السيدة تامارا راتلدج زوجة كلاي وأم فرانسي. لم تحلم قط من قبل بأنها ستستعيد أخيراً ابنتها الغالية.

ليس هذا فقط، ولكن فرانسي قد عادت إليها بمنحة ثمينة... وهي أبوها كلايتون راتلدج، الرجل الوحيد الذي أحبت، وستحبه في حياتها. فماذا لو لم يحبها كلاي؟

ربما، ربما فقط عندما يرى كم هي زوجة جيدة، ومبلغ جدارتها كأم لابنته، ستلتئم جراح الماضي في قلبه وسيتعلم كيف يحبها.

وأجفلت مستيقظة من أحلام اليقظة هذه، عندما فتح الباب بعنف لترى فرانسي تدخل راكضة وما زالت في بيجامة النوم. كانت عيناها تتألقان ووجها يشرق بابتسامة عريضة، وهي تصرخ قائلة: «تامارا.» ثم قفزت بين ذراعي تامارا: «استيقظي. اليوم سنتزوجك أنا وأبي.»

جلست تامارا تحتضن الطفلة التي كانت تطوق عنقها بذراعيها: «إنني مستيقظة يا حلوتي ولن أضيع لحظة واحدة من هذا النهار مهما كان الأمر.»

كانت نفسها تفيض بالسعادة. كل شيء كان يسير بشكل رائع منذ أعلنا، هي وكلاي، خطوبتهما وقد سرت أسرته وخصوصاً عندما علمت بأنهما سيتزوجان في المزرعة. وفرانسي، فرانسي الحلوة الغالية قد تقبلت الفكرة دون تردد. كان أول ما سألتها عندما أخبروها بذلك هو: «هل أستطيع أن أدعوك ماما الآن؟»

هذا السؤال كاد يدمّر تامارا. لم تكن واثقة من أن بإمكانها أن تكتم كل هذه البهجة التي كانت تغمرها. ولكن كلاي، أخمدها إلى حد ما بجوابه لابنته.

يبدو أنه بوغت، واستحال ضحكه إلى عبوس لدى سؤالها هذا، بقي دقيقة صامتاً وعندما تكلم كانت لهجته كئيبة وهو يقول: «حسناً، يا عزيزتي، صحيح أن تامارا ستكون زوجة ابيك وأمك الثانية، ولكن أمك أليسيا ستبقى هي (ماما) على الدوام، وأظن من الأفضل أن تستمري في مناداتها باسمها تامارا، إتفقنا؟»

لقد نظر عند ذلك إلى تامارا، فرأت في عينيه اعتذاراً حزيناً. لقد تلاشى بعض بهجتها حينذاك. لم يكن من السهل عليها أن تسمع ابنتها تنادي امرأة أخرى ماما، ولكنها لن تدع ذلك يدمّر سعادتها.

ها هوذا يوم العرس قد حان، وقد كان كلاي وتامارا وفرانسي قد ذهبا في اليوم السابق إلى المنزل ليساعدوا في تزيينه وإعداده للاحتفال. سيبدأ الاحتفال الساعة

الرابعة بعد الظهر ليتبعه استقبال المهنئين ومن بعده العشاء ثم يترك العروسان فرانسي مع جديها ويذهبان إلى كورباس كريستي حيث يمضيان شهر العسل إنما لأسبوع واحد.

ضربت تامارا ابنتها على ظهرها مداعبة ثم استدارت تجلس على حافة السرير وهي تقول لفرانسي: «اركضي وارتدي ثيابك الآن، يا طفلتي فهذا سيكون يوماً حافلاً بالعمل، وعلينا أن نبدأ باكراً.»

فحركت فرانسي وجهها باستياء وهي تحتج بقولها: «أنا لست طفلة.»

فنظرت إليها تامارا وعلى فمها شبه ابتسامة حزينة: «كلا، إنك لست كذلك. أنت تكبرين بسرعة.» وفكرت بأسى في أنها خسرت السبع سنوات الأولى من حياة ابنتها.

تفاجأت وهي تسمع فرانسي تسألها: «هل ستلدين طفلاً مثل عمتي ليندا؟»

فأجابت متلعثمة: «آه، حسناً... أنا وأبوك نأمل في أن يكون لنا طفل فيما بعد، هل تحبين أن يكون لك أخ أو أخت؟»

فأجابت بحماس: «نعم. هل يمكنني أن أغسل وجهه؟ وأطعمه وآخذه للنزهة في عربته؟»

فضحكت تامارا، ذلك أنها سبق واكتشفت ميزة في فرانسي وهو أنها تريد كل شيء على الفور: «يمكنك ذلك بكل تأكيد. إنما الأحسن أن تذهبي الآن وترتدي ثيابك. لا بد أن جوانيتا تعد طعام الإفطار فأنا أشم رائحة القهوة.»

فانطلقت الطفلة خارجة من الغرفة، بينما أخذت تامارا في تبديل ثيابها. وما أن خرجت من غرفتها حتى فتح باب في آخر الردهة ليخرج منه كلاي.

قال: «كنت ذاهباً إليك. أتراك كنت تريدين رؤيتي؟»

اقتربت وهي تتمتم قائلة: «كنت أودّ ذلك، ولكنني خشيت أن يكون هذا غير مناسب. أظن هناك قاعدة تمنع العريس من رؤية عروسه قبل العرس؟ ما كنت لأجرح شعور والدتك.»

«لا يمكنك أن تجرحي شعور أمي. فقد أصبحت ذات مناعة من الصدمات بعد عيشها مع زوج وثلاثة أبناء، هذا إلى العديد من اجراء المزرعة، ولا بد أن مَنْ وضع تلك القاعدة هو سادي يحب تعذيب الآخرين. يا عروسي الرائعة. هل أنت واثقة تماماً من أنك تريدين اتمام هذا الأمر معي؟ إنك صغيرة السن والحياة أمامك ممتدة حافلة...»

فشعرت بوخزة من الحذر أصعقتها، وقالت بلهجة خشنة حادة: «أتحاول أن تقول إنك تريد أن تتراجع؟ وأنك لا تريد الزواج مني بعد كل هذا؟»

فأجاب: «كلا، كلا أبداً. ليس هذا ما قصدت قوله. لا أظنني سأدعك تذهبين الآن حتى لو شئت أنت ذلك. ولكنني لا أستطيع مقاومة الشعور... الشعور بالذنب. ففي الوقت القصير الذي عرفتك فيه، منحت حياتنا الكثير من الحنان، وبكامل ارادتك. ولكن كل ما تحصلين عليه بالمقابل هو رجل متوسط السن قد تدمّر عاطفياً، وأسرة جاهزة.»

هزت رأسها قائلة: «لا تقل هذا. حتى لا أريدك أن تفكر فيه. إنك لست متوسط السن، وأنا أحبك. صدقني إذا أنا قلت إنك منحتني أكثر كثيراً مما تظن. أكثر من أن أستطيع أن أسددك إياه...»

وسرعان ما انتبهت لدى رؤيتها الحيرة التي ارتسمت على ملامحه. كلمات قليلة أخرى وتكشف كل شيء، ربما الأفضل لها أن تستمر فتخبره بما تخاف أن يعرفه. هل عدم اعترافها بأنها هي والدة فرانسي، يعتبر خداعاً؟ وهل جعله يظن أنه حرمها مما يسميه زواجاً طبيعياً، يعتبر قسوة منها، بينما في الواقع قد أعطاها الشيء الذي لم يستطع أحد غيره أن يعطيها إياه وهو أول طفل لها؟

«تامارا... ماذا جرى؟»

فعادت بانتباهها إليه، لتقول بذهن مشتت: «لا... لا شيء.» ثم نظرت إليه وأشرق وجهها بالابتسام، تريد بذلك أن تبعده عما كانت على وشك قوله.

مرت الساعات والأسرة بأجمعها تضفي اللمسات الأخيرة على الزخارف وتحضير الطعام. وعند الساعة الثانية، ذهب كل واحد إلى بيته لارتداء ثياب الحفلة.

وابتدأت تامارا بالتفكير. كانت تريد أن تبدو عروساً رائعة، ولكنها لم تكن تريد أن تذكره باليسيا وبعرسه الأول.

كانت تعلم أنها لا تشبه زوجته الأولى بشيء.

ومع هذا، فكل العرائس يبدين متشابهات، ولهذا السبب فقد قررت ألاّ ترتدي ثوباً طويلاً أبيض ذا ذيل ونقاب طويل

واختارت بدلاً من ذلك ثوباً يصل لتحت منتصف الساق مزيناً بدانتيل مشمشيّ اللون. ولطرحة الرأس إكليلاً من الزهور بنفس اللون المشمشي. كانت قد جففت شعرها وباشرت بتزيين وجهها عندما سمعت نقراً على الباب وصوتاً يقول: «أنا روث.»

فأجابت: «دقيقة واحدة.» وأسرعت ترتدي معطفها المنزلي قبل أن تفتح الباب.

قالت والدة كلاي وهي تدخل الغرفة: «لا أريد ازعاجك يا عزيزتي، ولكن كاتي وجيم اصطحبا فرانسي معهما إلى المنزل لكي تلبس كاتي فرانسي ثيابها، وما دامت أمك ليست هنا، وليس لديك شخص راشد يرعاك، فكرت في أنك قد تحتاجين بعض المساعدة.»

فشعرت تامارا بغصة لما شعرت به من شكر لها. وغالبت دموعها: «هذه رعاية منك كبيرة لي، يا روث، إنني بحاجة إلى بعض العون بالتأكيد. فحالما أنتهي من زينة وجهي، سأكون شاكرة لك جداً لو ساعدتني في ارتداء ثيابي وتثبيت شعري.»

كانت والدة كلاي امرأة جميلة المظهر، لا تعد رائعة الجمال لنحولها الزائد، ولكنها في ثوبها ذي اللون البنفسجي الفاتح والعقد الثمين الأرجواني اللون حول عنقها وكذلك القرطين، كانت تبدو رائعة حقاً.

وفي الثالثة والنصف، عاد أفراد الأسرة، كما ابتدأ الضيوف وأصدقاء أسرة راتلدج الذين يعيشون في المنطقة، يتوافدون. وأخذت تامارا تختلس النظر إليهم من النافذة وهم ينزلون من سياراتهم. كانوا غرباء بالنسبة إليها،

ولكنهم كانوا أصدقاء كلاي وكانت متشوقة للالتقاء بهم. ماذا عسى أن يكون رأيهم فيها؟ هل سيشعرون بأنها صغيرة السن بالنسبة إليه؟ أم أنها غير جميلة بما فيه الكفاية؟

قالت لها روث من خلفها: «لا تدعي القلق ينتابك. فالعرس سيكون جميلاً. لقد عرفنا هؤلاء الناس وآباءهم وأجدادهم طوال حياتنا، وهم يعتبرون كلاي واحداً منهم، ولا يتمنون له سوى الخير. وسيتقبلونك دون تحفظ لأنك جعلته سعيداً مرة أخرى.»

شعرت تامارا بالدفء لكلمات المرأة الهادئة، ولكنها ما زالت متشككة، فقالت متأملة تحدث نفسها أكثر مما تحدث روث: «هل فعلت ذلك حقاً؟»

فأجابت والدة كلاي: «آه، نعم، فهذا واضح جداً لنا جميعاً. كان عليك أن تعرفي كيف كان أثناء السنة التي مرت، لكي تدركي التغيير الذي أحدثته في حياته.»

أذهل تامارا ما شعرت به من عرفان بالغ، عن أن تتكلم. لم تكن تريد أن تبكي لئلا تتلف زينتها، ولكن المرئيات اهتزت أمامها من خلال دموعها، فسارت تتناول منديلاً ورقياً أخذت تجفف به دموعها، لتستدير بعد ذلك تواجه المرأة وهي تقول ببساطة: «إنني أحب كلاي من كل قلبي.»

فقالت روث: «وهذا ما لاحظته. وهو أيضاً يحبك.»

فهزت تامارا رأسها: «كلا، إنه لا يحبني. إنه يشعر فقط نحوي بإعزاز كبير. ولكنه ما زال حزيناً لأجل أليسيا.»

فقالت روث: «إنه طبعاً حزين لأجلها، فقد عرف الواحد منهما الآخر منذ الصغر، وقد دام زواجهما مدة طويلة ولكن بإمكانه أن يحزن عليها ومع ذلك يحبك.»

لم تكن تامارا قد فكرت قط في الافضاء بما في نفسها إلى أحد، وخصوصاً والدة كلاي. ولكن المرأة كانت تبدو ودودة من السهل الإفضاء إليها بما يشغلها، ولم يكن لدى تامارا أحد غيرها، فقالت: «يبدو أنه لا يفكر هكذا. لقد كان أخبرني أنه لن يحب امرأة أخرى كما أحب أليسيا.»

فاتسعت عينا روث ذهولاً: «هل قال ذلك حقاً؟»

فأومأت تامارا: «نعم، لقد قال ذلك. لم يكن زواجنا فكرته هو، يا روث، وإنما أنا التي عرضت عليه ذلك.»

فقالت المرأة: «ولكن ها هو قد وافق.»

فهزت تامارا كتفيها: «إنه وحيد، وهو بحاجة إلى من يعتني بابنته ويدير بيته.»

فهزت روث رأسها بذهول غير مصدقة: «إنه أحمق أعمى. فهو دوماً عنيد غير مرن بالنسبة إلى مصلحته، وهذه هي مشكلته الآن. فهو لم يعرف امرأة سوى أليسيا. وربما هو يشعر في أعمق أعماقه بأنه إذا هو أحبك، فهذا يعني عدم وفاء لها.»

فقالت تامارا توافقها على رأيها: «أظن هذا هو السبب، ولكنها إذا كانت تحبه، فمن المؤكد أنها ما كانت سترضى بأن يمضي بقية حياته وحيداً إلا من فرانسي.»

فقالت روث: «الحق معك. إنها لا ترضى بذلك. وهو سيعلم ذلك إذا هو سمح لنفسه بالاعتقاد به. امنحيه

وقتاً قليلاً، يا عزيزتي فعندما تتزوجان وتستقران سيدرك أنه يحبك بنفس القوة والعمق اللذين أحب بهما أليسيا.»

فتمتمت تامارا: «سيدرك... إن هذا يبشر بالخير... تماماً مثل الحكايات عندما ينتهي كل شيء بالسعادة. ولكن الحياة الحقيقية لا تسير دوماً حسب المخطط لها، وقد ينتهي الأمر بألاّ يسمح لنفسه أبداً بأن يحبني.»

فبدا القلق على روث: «إذا كان لديك شكوك في ذلك فلا تتزوجي. إن الأوان لم يفت بعد للتراجع قبل إداء اليمين.»

فاتسعت عينا تامارا ذهولاً وقالت بشدة: «آه، لن أفعل ذلك أبداً. إنني أحب كلاي. وسأكون معه أكثر سعادة مما لو كنت وحدي. وسأقوم بكل ما في وسعي لكي أسعده هو أيضاً.»

فبدا على روث وكأنها على وشك على البكاء. غالبت دموعها وهي تمد ذراعيها تطوق بهما تامارا قائلة: «إنك أفضل من صادف ابني وفرانسي. إنها تحبك من كل قلبها وكذلك هو. إنه فقط لم يسمح بعد لنفسه بالاعتقاد بذلك.»

وعند الساعة الرابعة، كان كل المدعوين على الكراسي التي كانت صفت في غرفة الجلوس، واتخذت تامارا مجلسها على قمة السلم.

بعد ذلك بلحظات، خرج كلاي من غرفته ليقف بجانبها. كان يضع في عروة سترته زهرة مشمشية اللون، لم تره من قبل قط بهذه الاناقة وهو يناولها باقة الورود التي كانت

تتلاءم مع اكليل شعرها، وهو يقول بصوت أجش: «تبدين رائعة الجمال بهذه الزهور.»

كانت تعلم أنها لا بد كانت تتألق بالسعادة التي كانت تشعر بها، فقالت بصوت مرتجف: «وأنت تبدو بالضبط كالعريس الذي كنت دوماً أتمناه.»

فقال: «سأقوم ما بوسعي لأكون بهذه الصورة التي تصورتني بها.»

فقالت بصدق: «ولكنك كذلك فعلاً.»

لم يستطع العروسان الابتعاد عن المكان إلا بعد السابعة مساء. لقد كان لجمال الاحتفال من التأثير على تامارا ما لم تشعر به من قبل. وكانت فرانسي تبدو فاتنة في ثوبها السكري اللون بحزامه ذي اللون المشمشي. كانت عيناها الكبيرتان تتألقان بالبهجة وهي ترى أباها وتامارا يهبطان السلم نحوها ونحو أخيه داستي، وعندما ابتدأ عقد القران، بقيت جامدة تملأها الهيبة.

وبعد ذلك، أقبل المدعوون عليهما يهنئونهما ويتمنون لهما السعادة.

وبعد أن انتهى هذا، قطعت كعكة الزفاف أخيراً، وألقيت باقة العروس. وقد تعمدت تامارا القاءها على فرانسي وشعرت بالارتياح عندما أفلحت الصغيرة في التقاطها. وكان سرورها لهذا كبيراً.

وعندما سجلا اسميهما في الفندق الذي كانا حجزا فيه جناحاً في مدينة كورباس كريستي كان الظلام قد عم المنطقة. ونقل الموظف حقائبهما إلى حيث غرفهما

في الطابق العشرين الذي كان يطل على مناظر تخطف الأنفاس. وما أن توارى الرجل، حتى استدار كلاي نحو تامارا وهو يتمتم: «كم تبدين صغيرة وجميلة؛ لا أريد إيلام مشاعرك أريدك أن تكوني سعيدة ولكنني أحياناً أتصرف بفظاظة دون قصد. فأفعل أو أقول شيئاً دون ذوق...»

«كفى يا كلاي، فأنت لست فظاً ولا عديم الذوق، إنك حساس جداً وتراعي مشاعر الآخرين وأنا أحبك. إنني أفهم شعورك نحوي وأنا أقبل به. فكفّ عن هذا القول.»

فهمس قائلاً: «أتدرين أنك ضرورية لي كالهواء الذي أتنفس؟ وأنني لن أدعك ترحلين أبداً لأنني لن أستطيع العيش من دونك؟»

قالت وقد شملها الرضى: «أرجو أن تعتقد ذلك على الدوام.»

* * *

عندما وصلا إلى جناحهما ترددت قبل ان تقول: «كلاي. لدي شيء اود اخبارك به، فأرجو أن تصغي إلي بهدوء والاّ تنفعل.»

قال لها: «ماذا هناك يا تامارا؟»

أجابت: «أنت تعلم كيف جاء قرار زواجنا سريعاً ووليد اللحظة... وأنا...» ولم تعد تعرف كيف تختار كلماتها. كانت خائفة أن تكون باعترافها لجزء من حياتها ان تهدد سعادتها معه بقرب فرانسي.

قال وقد بان القلق في عينيه: «تامارا... لقد اقلقتني. ما الأمر؟»

عدني ان تتقبل ما اود اخبارك به بروية وأن لا تسيء فهمي، فأنا لم اقصد إخفاء الأمر عنك، ولكن...»

«ما هذا يا تامارا؟ هل هي ألغاز؟ حسنا! أعدك أن أكون هادئاً ومتفهماً. هيا، تكلمي.»

قالت وصوتها يرتجف: «كلا. باختصار لقد سبق لي وتزوجت.»

رفع حاجبيه منذهلاً، سائلاً إياها: «كيف حدث هذا؟ ولماذا لم تخبريني من قبل؟ ما سبب طلاقك؟»

«كلاي! إهدأ. لقد وعدتني بألا تنفعل. أولاً تزوجت صغيرة برغم ارادة والديّ، ثانياً، لم اخبرك من قبل لأنك وكما تذكر انه لم تسنح لي الفرصة للتحدث في هذه الأمر، فقد كان قرار زواجنا سريعاً وقصيراً جداً. أما جوابي عن سؤالك الثالث فهو انني لم اطلّق زوجي، بل هو توفي في حادث سيارة وكان هذا منذ وقت طويل. كلاي! أنا أحبك ولم اقصد إخفاء الأمر عنك. صدقني. ارجوك لا تدع هذا الأمر يؤثر علينا، خصوصاً في بداية زواجنا.»

«عزيزتي... ارى ان ظروفك تشابه قليلاً ظروفي.»

قالت له: «كلا... ظروفنا ليست متشابهة، لأنك تزوجت زوجتك عن حب حقيقي دام حتى وفاتها، ولكني تزوجت من طيش وعدم نضج فكري.»

أخذ يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً دون أن يتفوه بكلمة لوقت أحست به يوماً بأكمله، ثم عاد عن صمته قائلاً:

«لولا انني عرفتك من خلال إقامتك في منزلي لشككت في قولك، ولكني ما لمست فيك سوى الصدق والصراحة. لذا، لا تقلقي. لن افكر بهذا الأمر. لقد انتهى وكان هذا جزء من ماضيك، فلنعش حاضرنا ومستقبلنا بسعادة دون ان ندع شيئاً يؤثر على حياتنا معاً. هل أنت راضية؟»

نظرت إليه نظرة امتنان واجابت: «أحبك.»

الفصل التاسع

كان ذلك الصيف حاراً رطباً في سان انطونيو، ولجأ السكان والسائحون إلى بيوتهم ومساكنهم المكيفة، أو هرولوا إلى المتاجر الفخمة والمسارح للترويح عن النفس.

ولا يعني هذا أن تامارا هاوستون راتلدج قد لاحظت شيئاً، فقد كانت من البهجة بحيث لم يكن ليؤثر عليها شيء مثل حرارة الجو، وفي الواقع لم يكن هناك شيء بإمكانه تعكير هدوئها النفسي. وكيف يمكن ذلك ولديها كل ما تحتاجه لكي تكون سعيدة راضية؟ ابنتها المحبوبة وزوج مثالي.

بعد شهر العسل ذاك الرائع، عادا إلى البيت حيث كانت سعادتهما كبيرة، وإذا كان سبق وتملكها أية شكوك وهي تقدم على الزواج من رجل اعترف بصراحة أنه لا يحبها، فقد تلاشت تلك الشكوك ذلك أن كلاي كان زوجاً مثالياً وحريصاً على إرضائها ورعايتها، صحيح أنه لم يقل لها أحبك، ولكن كثيرات من النساء يشكين مثل ذلك من أزواجهن.

ولم يكن ذلك ضرورياً مع كلاي. فقد كان يبدو حبه لها في طريقة معاملته لها. ففي اليوم الذي تلا اتفاقهما على الزواج، نقل بكل هدوء صورة أليسيا من غرفة المكتبة ووضعها في المخزن. حتى انه

استأجر من يعيد زخرفة وتأثيث غرفتهما الكبيرة في بيته وذلك أثناء قضائهما شهر العسل، وهكذا، عند عودتها معه زوجة له إلى البيت، كانت كل آثار أليسيا وذكرياتها قد نقلت.

وأقام الجيران والأصدقاء وزملاء العمل عدة حفلات على شرفهما، ومع أنهم جميعاً كانوا اصدقاء لأليسيا، فقد رحبوا بتامارا وبدت عليهم السعادة بوضوح لزواج كلاي مرة أخرى، ولكن أجمل شيء كان، هو تقبل فرانسي غير المشروط لتامارا زوجة لأبيها وأماً لها، ورغم أن كلاي لم يسمح لفرانسي بأن تناديها ماما أو أي شيء مشابه لهذا اللقب، فقد كانت خيبة أملها لا تقاس بتلك البهجة التي تجدها في كونها أصبحت جزءاً من حياة ابنتها.

ومر الصيف، وفي ثالث سبت من تشرين الثاني (نوفمبر) يكون قد مر على زواج كلاي وتامارا ثلاثة أشهر كاملة، وكانت فرانسي قد دخلت عامها الثامن في شهر آب (اغسطس) وصعدت إلى الصف الثالث في مدرستها ميشين ترايل، وتملكت تامارا السعادة والفرح وهي تحتفل معها بذكرى مولدها. لقد فاتها الاحتفال بذلك في السنوات السابقة، ولكنها لن تسمح لذلك بأن يحدث مرة أخرى.

كان الوقت بعد الظهر، وكانت فرانسي قد ذهبت إلى حفلة إحدى صديقاتها من الجيران، وكلاي في مكتبه في الناحية الخلفية من المنزل، وتامارا في المطبخ تصنع بعض الكعك. كانت تحب العمل لأجل أسرتها، أسرتها...

ما أجمل رنين هذه الكلمة في أذنيها، لقد كانت مغمورة بالنعمة حقاً.

* * *

جلس كلاي إلى مكتبه محاولاً أن يركز أفكاره في الأرقام التي يحويها بيان المصرف الذي أمامه، ذلك أن صورة تامارا وهي تدور في أنحاء المطبخ، كان يشغله عن عمله. لقد أصبح بيته مكاناً مختلفاً عما كان عليه وذلك منذ قدومها لتقيم فيه مربية لفرانسي أولاً، ومن ثم زوجة له.

كان ما يزال حائراً بالنسبة لمشاعره، كيف يهتم بها بهذا الشكل العنيف في حين أن أليسيا كانت حبه، وحياته؟ فقد أصبحت تمر عليه أيام لم يكن يفكر فيها بزوجته الراحلة، حتى إن جملة الزوجة الراحلة لم تعد تخطر له، ذلك أن تامارا هي زوجته الآن وهي حية ترزق، ولكن مشاعره لم تكن مفهومة، وهذا ما كان يضايقه.

كانت رائحة الكعك الطازج وصوت تامارا وهي تغني أثناء العمل، أعادت إلى إفكاره المضطربة إتزانها. كان غناؤها حلواً رقيقاً، وعندما أعرب مرة عن ذلك، أخبرته بأنها كانت تغني في المدرسة.

كان واضحاً أنها تلقت تربية صالحة، ولكنها لم تكن تأتي على ذكر والديها أو عن طفولتها مطلقاً، كل ما كان يعرفه أنها لم تكن على وفاق مع والديها، ولكن لم يكن لديه فكرة عما كانت تعنيه بهذا القول،

أيمكن أن يكون الأمر عدم تفاهم طفيفاً، أم أن ثمة كراهية متبادلة بينهما؟

لم يكن يستطيع أن يتصور أن تامارا تكره أحداً، وكان واثقاً من أن لا أحد يمكن أن يكرهها، فقد كان قلبها دوماً عامراً بالمحبة. ولكن، ما الذي يعرفه عنها، في الحقيقة، سوى انها أرملة؟ في كل مرة حاول فيها أن يسألها عن ماضيها، كانت تغير الموضوع بحذق بالغ لم يكن يدري معه أنها تتعمد ذلك.

حسناً، لم يكن الأمر يعنيه، في الواقع، وعندما تقرر أن تخبره به، فستفعل ذلك. وإلى أن يحين ذلك الوقت، فهو لن يتطفل عليها.

وكان رنين الهاتف هو الذي نبهه من أفكاره هذه، وحيث أنه كان جالساً إلى مكتبه، فقد أمسك بالسماعة حال سماعه الرنين: «منزل راتلدج، كلاي يتكلم.»

«كلاي، أنا فيكتور يورك.»

فتملكت كلاي الدهشة، ذلك أن فيكتور يورك هو محاميه، ولكن علاقتهما كانت عملية بحتة، ولم يحدث قط أن كان بينهما اتصال هاتفي إلى المنزل. وقال يجيبه: «كيف حالك يا فيكتور؟ لم أرك منذ مدة طويلة.»

«نعم، هذا صحيح، كيف الأمور معك؟ سمعت أنك تزوجت منذ وقت قريب.»

أترى فيكتور يتصل به ليهنئه فقط؟ فأجاب: «نعم. لقد تزوجت، ونحن سعيدان جداً.»

«أنا مسرور لسماع ذلك.»

وساد صمت غير عادي قبل أن يعود فيكتور فيقول

بلهجة كارهة: «اسمع يا كلاي. أنا لا أريد أن أسبب لك القلق. ولكنني تلقيت لتوي مكالمة هاتفية من السيدة اندروود، مديرة مستشفى الولادة ذاك في فورت وورث حيث ولدت طفلتك.»

فتملك كلاي شعور بالخوف. «نعم، تذكرت هذا، ما علاقة هذا معي؟»

«ربما لا شيء مهماً، ولكنها اخبرتني بأنهم وجدوا حديثاً الملف الخاص بوالدة ابنتك في درج أحد الموظفين، بينما كان هذا الملف قد أودع خزانة الملفات المنتهية وذلك منذ سنوات.»

ازداد الخوف في نفس كلاي. «أدخل الموضوع حالاً يا فيكتور، أرجوك.»

«الموضوع هو أنهم قاموا بالبحث، وكانت النتيجة أن الموظف، والذي كان يعمل لديهم بصفة موقتة كبديل لموظف كان في إجازة مرضية، هذا الموظف قد اعترف بأنه تلقى رشوة مقابل معلومات عن ابنتك الصغيرة.»

فأخذ كلاي يشتم وقد تملكه غضب عنيف. «إذا سبّب هذا مشكلات بالنسبة إلى فرانسي، فسأقتل الموظف ذاك وسأرفع دعوى قضائية على دار الولادة...»

فرفع المحامي صوته قائلاً: «تمهل ولا تستعجل. فدار الولادة قد ضبط الأمور. لقد طرد الموظف من العمل والموضوع قد استقر تماماً وأصبح كما كانوا يقولون في الافلام البوليسية القديمة. «اصبح يغني كالعصفور.»

قال كلاي ببطء: «هذا الأمر ليس مزاحاً، يا فيكتور.»

فتنهد المحامي قائلاً: «أعلم ذلك، يا كلاي. ولكن ليس بالضرورة أن نعتبره مأساة، فقد ألقي القبض على مخبر سري خاص في إيمس بولاية إيوا. فهو الرجل الذي اتصل بدار الولادة وقدم الرشوة للموظف في شهر حزيران (يونيو) الماضي.»

إيمس، إيوا؟ إنها بلد تامارا التي كانت تعيش فيها، يا لها من مصادفة غريبة. وسأله: «ما الذي كان يريد أن يعرفه، وما الذي كان يريد أن يفعل بتلك المعلومات.»

«حسناً، كان يريد أن يعرف من هو الذي أخذ طفلة تامارا هاوستون...»

كانت الصدمة التي شعر بها كلاي أقوى من أن يستطيع الوقوف، وسرعان ما هبط جالساً على الكرسي بعد أن عجزت ساقاه عن حمله.

تامارا هاوستون! كلا! مستحيل... تلك مجرد صدفة أن تكون تامارا نفسها. لا بد أن عقله يخادعه.

كان فيكتور يهتف خلال الهاتف: «كلاي، كلاي، أمازلت هناك؟ هل تسمعني؟»

حاول كلاي أن يتكلم، ولكن حلقه كان من الجفاف بحيث لم يستطع معه النطق، وتنحنح، ثم حاول مرة أخرى فنجح صوته في الانطلاق هذه المرة، إنما كان أجش صدئاً: «تا... تامارا هاوستون؟»

«نعم، هذا اسم والدة ابنتك، لقد اعطوني اسمها وآخر

عنوان يعرفونه عنها حيث أنها قد نقضت العهد القانوني بإفشائها سر هذه الحالة، في الوقت الذي ولدت فيه طفلتها كانت في السابعة عشرة من عمرها وكانت تعيش في مدينة صغيرة في إيوا. وحيث أنها كانت في شهر حزيران (يونيو) من هذه السنة تعيش في مدينة إيمس، فقد استأجرت مخبراً سرياً خاصاً.»

قال كلاي وقد شعر بالدوار: «هل... هل استأجرت مخبراً خاصاً؟»

«هذا ما قلته لك، يا كلاي، هل أنت بخير؟» سأله ذلك بصوت بدا فيه القلق.

فجاهد كلاي لكي يتمالك نفسه. لم يكن يريد أن يدع فيكتور يعلم بمقدار الصدمة التي تلقاها: «كلا، إنني لست بخير. فأنا أكاد أجن. لن يستطيع أحد أن يأخذ ابنتي مني، لن يستطيع أحد ذلك.»

فقال فيكتور بحدة: «لن يحاول ذلك أحد. انتبه لما أقوله لك، هذه المرأة، تامارا هاوستون، دخلت إلى مكتب ذلك المخبر الخاص ذات يوم واخبرته بأنها كانت تخلت عن طفلتها عندما كانت ارملة ووحيدة، وهي تريد منه أن يعثر على الذين تكفلوا برعايتها. لقد رفض الرجل في البداية، ولكنها طمأنته إلى أن ليس لديها نية في المطالبة بالطفلة، فهي تريد أن تعرف مكانها فقط وما إذا كانت سعيدة وتحظى بمعاملة طيبة.»

فتمتم كلاي ساخراً: «كم هذا مؤثر، كيف إذن صبرت ثماني سنوات؟ كان من الممكن أن يقتل المتكفلون غير

الملائمين هذه الطفلة أو يحدثوا فيها عاهة مستديمة أثناء ذلك الوقت.»

«كلاي، أنا اعلم أن هذه كانت صدمة لك، ولكن لا يمكن لك أن تنظر إلى هذا الأمر من ناحيتين، هل أنت غاضب لأنها حاولت العثور على ابنتها، أم لأنها انتظرت طوال ذلك الوقت لتقرر ذلك؟»

فقال بخشونة: «فيكتور، ليس لديك فكرة عن مقدار ما يتملكني من غضب جامح عنيف، إن جنوني منها هو لأشياء لم تخطر لك ببال، سأتصرف أنا معها. أما أنت فعليك أن تقيم عليه دعوى لسحب رخصة عمله منه قانونياً، وتأكد من أن ليس بإمكانه أن يقوم بشيء كهذا بعد الآن.»

* * *

أخرجت تامارا آخر صينية كعك من الفرن، ثم اغلقته وكان الجو يعبق برائحة كعك الشيكولاته الطازج، كانت ستأخذ منه طبقاً إلى كلاي حالما تنتهي من تنظيف المطبخ، رغم دهشتها لعدم شمه الرائحة ومجيئه ليتذوق بعضها.

كانت تضع الأطباق القذرة في غسالة الصحون، عندما سمعت دوياً عاصفاً من ناحية غرفة المكتب وكأنما ألقي بشيء ثقيل على الجدار. فقفزت من مكانها وهي تقفل صنبور المياه.

أسرعت نحو تلك الضجة وهي تنادي: «كلاي.» ولكن صراخها حجبه صوت تحطيم يصم الآذان، بدا وكأن كل

ما هو قابل للكسر في المكتب قد تحطم وتناثرت أجزاؤه.

ركضت وهي تصرخ مرة أخرى: «عزيزي، ماذا حدث؟» وكان باب المكتب مغلقاً، فأدارت المقبض. ولكنه لم يدر في يدها، لقد كان الباب مقفلاً.

«كلاي، ما الذي يجري؟» كانت تصرخ وهي تدير المقبض بعنف. «الباب مقفل، دعني أدخل.»

فسمعت سباباً قبل أن يصرخ قائلاً: «ابتعدي من هنا.» تبتعد من هنا؟ أي جواب هو هذا؟ ولماذا يقفل الباب؟ وما الذي يفعل؟

أخذت تطرق الباب وقد اختلط في نفسها الخوف بالغضب: «دعني أدخل يا كلاي راتلدج. ما الذي حدث؟ هل سقط شيء؟ هل اصابك ضرر؟»

فأجاب بقسوة: «لم يسقط شيء ولم يصبني ضرر. فقط دعيني وحدي.»

ولأول مرة أدركت أنه مجنون. كلا، ليس مجنوناً فقط، بل ثائراً غضباً، ومنها هي، ولكن ما الذي فعلته؟

وتملك الآن تامارا خوف حقيقي، لم تر قط كلاي بمثل هذا الغضب من قبل، كما أنه لم يكن هناك شيء يستدعي ذلك عندما استيقظا هذا الصباح.

كان بشوشاً سعيداً أثناء الغداء إلى أن حان وقت ذهابه إلى المكتب حيث كان يجري دائماً حساباته وحسابات الأسرة.

كان قد قال إنه ذاهب لمراجعة بيان المصرف. أتراه وجد فيه شيئاً تسبب في استيائه إلى هذا الحد؟ هذا غير محتمل.

لا شيء أقل من الانهيار المالي الكامل ممكن أن يثير فيه كل هذا الغضب.

عادت تطرق الباب بعنف: «كلاي، أوقف كل هذا العبث، إفتح الباب ودعني أدخل، أرجوك، إنني قلقة.»

لم تسمع جواباً، وأخيراً جلست على الأرض، وقد تملكها الضجر والإذعان، وذلك أمام باب المكتب مباشرة، مسندة ظهرها إلى الجدار. ليس من عادة كلاي أن يتعمد جرحها بهذا الشكل، وهي لن تدعه يغيب عن بصرها قبل أن يخبرها عن هذا الأمر.

بعد ذلك بدقائق فتح الباب ووقف امامها، وهو يترنح وكأنه أفاق من صدمة. فشهقت وقالت: «عزيزي، ماذا حدث؟» ومدت يديها إليه ولكنه تراجع إلى الخلف ما أثار حيرتها.

«لا تلمسيني.» كان صوته منخفضاً إنما خشناً خالياً من أي شعور، كما كان وجهه شديد الشحوب. كما أن النظرة التي بدت في عينيه قد اذهلتها.

لم تحاول تامارا أن تخفي جرح كبريائها، إنها لن تبقى واقفة هناك باستكانة وتدعه يشتمها بكلامه، ولكنها، من ناحية أخرى، لم يعد لديها شك في سبب غضبه هذا، كان غاضباً منها. كلا، بل أكثر من غاضب، كان ثائراً.

وحيث أنها كانت دوماً متفائلة، فقد كانت واثقة من أنه مهما كان سبب غضبه، فإن ذلك من الممكن حسمه ووضع حد له إذا هما جلسا يتناقشان فيه بهدوء بصفتهما إنسانين عاقلين. إزدردت ريقها وهي ترخي ذراعيها إلى جانبيها

ثم تقول: «كلاي، لا ينبغي أن تعاملني بهذا الشكل، أنا زوجتك ومن حقي أن أعرف ما الذي جرى ليدفعك إلى توبيخي بهذا الشكل.»

فحملق فيها قائلاً: «آه، أحقاً؟ من حقك أن تعرفي، أليس كذلك؟ إذن، كيف تكونين أنت وحدك صاحبة الإمتياز في هذه الأسرة؟ ألا تظنين أنني أنا أيضاً كان لي الحق في أن أعلم قبل أن أدخلك منزلي وحياتي، بانك والدة إبنتي؟»

شعرت وكأنه دلق فوقها دلواً من الماء المثلج، وجمدت لهول الصدمة. فعادت تستند إلى الجدار وهي تحدق فيه: «كيف علمت...»

ولكن النظرة الهائلة في عينيه انبأتها بأن الدمار الذي احدثه قولها هذا، قد وقع.

قال بصوت بارد: «كيف علمت بالأمر؟ إنك طبعاً واثقة من انك لن تخبريني.»

«كلاي، أنا...»

فقاطعها: «هل ظننت حقاً أن بإمكانك أن تفلتي من العقاب بعد الرشوة والكذب؟»

فقالت مذهولة: «الرشوة؟»

«اخبريني، ماذا كانت خطتك الأساسية؟ هل أقبلت إلى هنا لتأخذي فرانسي مني، ثم بعد أن وجدت أنني أرمل، قررت أن الزواج مني هي طريقة أسهل للحصول عليها؟ أم أنك جئت عالمة بأنني ارمل وليس بإمكاني مقاومة تأثيرك الخداع؟»

«كلاي، أرجوك، إنك لا تفهم...»

«معك حق. فأنا لا أفهم. لا أفهم كيف أن أية امرأة، أية أم، بإمكانها أن تتخلى عن طفلها ثم، بعد سنوات، وبعد أن يصبح الطفل جزءاً من أسرة تحبه، تقتفي أثره لتمزق، بعد أن تجده، حياته بكل أنانية...»

«أنا لم أفعل ذلك. إستمع إلي يا كلاي...»

«استمع إليك؟» كرر كلماتها هذه بكره، لكنه تابع قائلاً: «لا بأس. سأستمع. إنما أجيبي على هذين السؤالين فقط، الأول، هل أنت والدة فرانسي؟»

ولم تشأ تامارا أن تستمر في الكذب فأجابت بصدق: «نعم، إنني أمها.»

فلم يبد على وجه كلاي أي شعور. «الثاني، هل كنت تعلمين عندما جئت إلى عيادتي لأول مرة، أنني أبوها بالتكفل؟»

أدركت تامارا الفخ الآن، ولكن الوقت قد فات لتجنبه فقالت وهي تحول نظراتها بعيداً: «نعم، كنت أعرف، إنما...»

«إذن، حتى وجع الضرس كان كذبة، ومازلت تتوقعين مني أن استمع إليك؟ أتراك ربما تفكرين في ابتزازي؟ فتطلبين مني مالاً على ألاّ تطالبي بالوصاية على الطفلة؟»

فقالت تامارا. «يا له من شيء كريه هذا الذي تقوله.»

«آه، إنه شيء بسيط بالنسبة للأشياء التي أفكر فيها ولكنني لم أقلها. لقد بقيت مفتوناً بعذوبة كلامك أشهراً، ومن المستحيل أن أمنحك فرصة بعد الآن لتعاودي نفث خداعك.»

واستدار فجأة مجتازاً القاعة نحو المدخل، فنادته تامارا: «إلى أين أنت ذاهب؟»

ويبدو أن صفقه للباب خلفه بعنف، قد هد من عزيمتها على الصمود، فانهارت على الأرض، وقد منعتها الصدمة حتى من البكاء، فجلست على السجادة السميكة، وقد دفنت وجهها بين يديها، إلى أن سمعت صوت دقات الساعة الأثرية في غرفة الجلوس تعلن الرابعة.

كان هذا هو الوقت الذي عليها أن تحضر فيه فرانسي من الحفلة إلى البيت.

سارت نحو الحمام. لم تستطع في البداية أن تميز صورتها في المرآة. لقد بدت بنفس المظهر الذي بدا عليه كلاي تقريباً، كان وجهها شديد الشحوب وقد انبعثت نظراتها من أعماق نفس حزينة تعسة.

لم تكن تريد أن تراها فرانسي واصدقاؤها بهذا الشكل، إنما ليس بإمكانها أيضاً أن تغتسل وتزين وجهها، فاقتصرت على غسل وجهها بماء بارد، ثم وضعت نظارات قاتمة على عينيها واندفعت خارجة من المنزل.

لم تكن سيارة كلاي في الكاراج، ولكن السيارة الجاكوار الصغيرة التي كان قدمها إليها هدية العرس، كانت هناك، فاستقلتها وسارت تلك المسافة القصيرة إلى منزل صديقة فرانسي.

فتحت لها الباب والدة الفتاة التي نظرت إلى تامارا بدهشة: «مرحباً يا تامارا. تفضلي. بماذا استطيع أن اساعدك؟»

أرادت تامارا الدخول، ثم توقفت وقد تحيرت لهذا السؤال. «لقد جئت لأجل فرانسي، يا مايبل، لقد كنت قلت الساعة الرابعة، أليس كذلك؟ آسفة إذ تأخرت قليلاً.»

فقالت مايبل: «ولكن فرانسي ليست هنا. لقد أخذها كلاي منذ ساعة تقريباً. لقد قال إن ظروفاً قد ألجأته إلى أن يأخذها لرؤية جديها.» لقد كانت تامارا تعرضت إلى أعنف المشاعر ألماً عقوبة لها، ولكن الخوف تملكها الآن. ولا بد أن هذا قد ظهر على وجهها لأن الاهتمام بدا على وجه مايبل: «لم يكن هناك بأس في أن ادعها تخرج معه، أليس كذلك؟ فهو أبوها.»

فازدردت تامارا ريقها: «نعم، نعم. طبعاً أظن أن وجهتي نظرنا، أنا وكلاي، قد تعارضتا آسفة لإزعاجك.»

ودّعتها وعادت مسرعة إلى سيارتها حيث جلست فيها وهي ترتجف. لماذا ذهب كلاي إلى المزرعة آخذاً فرانسي معه؟ لماذا لم يخبرها بما سيفعله؟ ومتى يعودان؟

وعندما تأكدت من أن بإمكانها أن تسوق السيارة دون أن تسبب حادثاً، تحركت بها عائدة إلى البيت حيث أخذت تفكر في وضعها.

في الساعتين الأولتين، استطاعت أن تبقي نفسها مشغولة ما تمكنت معه من دفع مخاوفها جانباً. لقد جن جنون كلاي منها، وهو قد أراد أن يبتعد عنها، ولهذا أخذ فرانسي الى المزرعة. وسيعودان بعد أن يهدأ قليلاً.

حاولت أن تتفرج على التلفزيون من السابعة إلى التاسعة، ولكنها في كل مرة كانت تسمع فيها صوت سيارة تمر قرب المنزل، كانت تقفز لتنظر من النافذة لترى إن كانا قادمين، ولكن عبثاً.

ومن الساعة التاسعة إلى العاشرة، كانت تتنقل من نافذة إلى أخرى آملة أن ترى ضوء سيارته.

في العاشرة وخمس دقائق طلبت المزرعة هاتفياً، وعندما سمعت الهاتف يرن في الناحية الأخرى، ارتجفت خوفاً. ماذا لو لم يكونا هناك؟ ماذا لو أن كلاي كان قال لمايبل انهما ذاهبان إلى المزرعة لأنه لم يكن يريد أن تعلم تامارا مكانهما؟ أتراه يخطف ابنته لكي يبعدها عن أمها الحقيقية؟

وأخيراً، أجابت روث على الهاتف.

«روث، أنا تامارا. هل... هل كلاي وفرانسي عندك؟» وحبست انفاسها بانتظار الجواب.

وعندما جاءها الجواب كان حيادياً لا يحتوي على المودة ولا الجفاء: «نعم، إنهما هنا، ياتامارا. ألم تكوني تعلمين بذلك؟»

فأجابت متلعثمة: «لم... لم أكن متأكدة، هل بإمكاني أن اتحدث إلى كلاي؟»

فقالت روث: «سأناديه.» ثم سمعت تامارا لغط اصوات، ولم تستطع تمييز ما كان يقال.

وأخيراً عادت روث تقول: «آسفة يا تامارا، ولكن كلاي يقول إنه لن يتكلم معك.»

فصعدت شهقة باكية من تامارا تبعتها آهة، فسألتها روث

بقلق: «تامارا، هل أنت بخير؟ ما الذي يحدث، اخبريني. لقد جاءنا كلاي وهو كالمجنون. إنه يقول انك تحاولين أخذ فرانسي منه.»

ولأول مرة، منذ ابتدأ كل هذا، فاضت الدموع من عيني تامارا لتغسل وجنتيها وهي تصرخ: «هذا غير صحيح. إنني لم أفكر في ذلك قط.»

«وهل أنت والدة فرانسي الحقيقية؟»

فتناولت تامارا منديلاً ورقياً من العلبة بجانب الهاتف وهي تجيب: «نعم، ولكنني لا ادري كيف علم بذلك...»

وأدركت لتوها أنه ما كان لها أن تقول ذلك، فبدا الجفاء في صوت روث الآن وهي تقول: «لا أظن أنه خطر لك أن تخبريه بذلك بنفسك.»

فقالت تامارا بصوت باك: «آه يا روث، لقد كنت أعاني من العذاب المبرح لهذا الأمر منذ البداية، من الواضح أن قراري كان خاطئاً، ولكنني لم اقصد الإضرار به قط.»

فقالت روث وقد بدا الآن غضبها واضحاً: «ولكنك اضررت به فعلاً إلى حد بالغ وشديد القسوة، إنه هنا منذ ساعات وما زال لم يهدأ بعد إلى حد يمكنه أن يقدم لنا تفسيراً واضحاً لما حدث. إنني أرى من الصعب التسامح في ذلك، وأشك في أنه سيصفح عنك أبداً.»

فارتجفت تامارا بسلسلة من الشهقات، ومضت لحظة قبل أن تقول: «ولكنك لم تسمعي قط القصة من ناحيتي أنا، وكذلك لم يسمعها أحد آخر.»

فاعترفت روث قائلة: «هذا صحيح، ولكنني رأيت ما فعلته بابني، وبصراحة، لا أرى كيف يمكن أن يكون ثمة عذر لذلك.»

كانت تامارا تعلم أن الحق مع حماتها في هذا الغضب. فقد كان سيتملكها الشعور لو أن احداً أضرّ بفرانسي كما فعلت هي بكلاي. ولهذا لن تسامح نفسها قط على العذاب الذي سببته لزوجها. لقد فتح لها قلبه كما فتح لها منزله، فكان أن قابلت هذا بالكذب والخداع.

وأخذت منديلاً ورقياً آخر جففت به أنفها ودموعها: «روث، هل فرانسي بخير؟ هل هي خائفة أو مستاءة؟»

«إن فرانسي بخير. ما أن ادركنا مبلغ انهيار وتحطم كلاي حتى اخذها جيم إلى منزله وكاتي تعتني بها.»

فتملك تامارا الإرتياح، على الأقل لم تكن ابنتها في وسط هذه المعمعة الرهيبة. وستبذل كل ما في وسعها لتبقي الأمر بهذا الشكل. ومن ناحية أخرى، فقد خسرت هي رضى آل راتلدج عنها، فقالت: «أظن... أظن الأسرة جميعها تعلم الآن بما حدث؟»

لم تكن تعني بقولها هذا سؤالاً لها، ولكن روث أجابت: «نعم بالطبع. وهذه هي فائدة الأسرة وهي أن يساند بعضها البعض في الملمات.»

فقالت متأملة بصوت عالٍ: «ما كنت أعرف هذا، لم تتصرف أسرتي معي بهذا الشكل قط.»

لم تكن تقصد أن تفكر بصوت عالٍ، ولهذا غيرت الموضوع بسرعة. إن آخر شيء تريده هو الشكوى وإظهار

نفسها ضحية مسكينة... وقالت: «هل... هل سيعود كلاي وفرانسي إلى المنزل هذه الليلة؟»

ساد الصمت لحظة قبل أن تجيب روث: «أشك في ذلك. ولكنني سأسأله إذا شئت ذلك.»

كانت تامارا تعلم الجواب مسبقاً، ولكنها أرادت السؤال فقط لترى إن كان هناك أمل. فقالت: «كلا، لا تزعجيه.» وانطلقت شهقاتها متتابعة ما لم تستطع معه متابعة الكلام فاقفلت الهاتف وتهالكت على الأرض وهي تنشج وتنوح.

الفصل العاشر

استيقظت تامارا في اليوم التالي، وكان الأحد، لتجد نفسها وحيدة في غرفتها وفي المنزل بأسره. لم يرجع كلاي ولم يكن لديها فكرة متى سيكون ذلك، وكانت هذه هي أول ليلة يمضيانها متفرقين منذ ليلة العرس، ووجدت نفسها ضائعة محطمة القلب.

استغرقت الليلة الماضية في النوم حالما دخلت غرفتها وقد تملكها الإرهاق، ولكن نومها ذاك كان مضطرباً حافلاً بأولاد ضائعين وأحباب دون وجوه ولكنها تعرفهم، وكانوا يشيرون إليها إشارات تحوي خيبة الأمل والإتهام بالعار.

بعد أن أنهت ارتداء ثيابها نزلت إلى المطبخ في الطابق الأسفل لتصنع فنجان قهوة، ولم تكن قد أكلت شيئاً منذ غداء أمس.

أثناء انتظارها غليان إبريق القهوة، أجفلت لسماعها المفتاح يدور في قفل الباب الخارجي، إنه كلاي، لا بد أنه هو. فالمفتاح لا يملكه سواهما هما الاثنين.

فتح الباب ثم أغلق، فسقط من يدها الفنجان الذي كانت قد أخرجته لتوها من الخزانة، سقط على الأرض محطماً، ولكنها لم تنتبه لذلك وهي تركض نحو المدخل.

كان كلاي متكئاً على الباب يحدق في الفراغ. فقالت له: «عزيزي، أرجوك أن تسامحني. لشد ما أنا آسفة...»

وأخرستها النظرة التي رمقها بها، وأوقفتها عن التقدم إليه، كانت نظرة تفيض عداءً وقسوة.

لم يقل شيئاً، وإنما بقي فقط يحدّق فيها وليس فيه ما يشجعها على الاقتراب منه. كان واضحاً أن عودته هذه لم تكن للمصالحة. وعند ذلك فقط انتبهت إلى أن فرانسي ليس لها أثر، فسارعت تقول: «أين فرانسي؟»

«لا تقلقي عليها. لقد رعيتها طوال حياتها، ولن أغير مسلكي هذا الآن. إنها ستقيم في المزرعة مع أمي وأبي إلى أن تستقر الأمور بيني وبينك.»

فهزت تامارا رأسها وقد ملأها الندم. لشد ما كرهت أن تسبب لهذا الرجل كل هذه الآلام، ولكنها كانت تزيد من ذلك كلما تكلمت: «كلاي، إنك موضع اهتمامي الأول، الآن، لأنني أعلم أنك لن تدع أي ضرر يلحق بفرانسي، ولكنني كنت أتوقع أن تأتي بها معك.»

وبدا لحظة وكأنه يوشك أن يترنح، ولكنه تمالك نفسه: «لا أريد مزيداً من الكذب، يا تامارا لا أستطيع تحمّل هذا.» كان يتكلم بضعف، وبدا وحيداً منهزماً إلى حد كان كل ما عليها أن تفعله هو أن تقرب المسافة بينهما، ولكن ما بدا على ملامحه أنذرها بأن تبقى حيث هي ولا تتقدم نحوه.

فقالت بدلاً من ذلك: «إنني لا أكذب عليك، إنني لم أكذب قط بالنسبة إلى مشاعري نحوك. أنظر لقد صنعت قهوة لتوي، فتعال إلى المطبخ وتناول فنجاناً منه. هل أكلت؟»

فكان كل جوابه أن هز رأسه.

«إذن، فسأصنع فطوراً.» واستدارت سائرة ببطء نحو المطبخ، دون أن تدري ما إذا كان سيتبعها أم لا.

لكنه قال: «لا أريد أن آكل.»

فحاولت أن تجعل صوتها هادئاً وهي تكلمه: «سأصنع فقط شيئاً من الشاي والخبز المحمص.»

فشعرت بالارتياح وهي تراه يتبعها، فأخذت تحضر الشاي بينما سحب هو كرسياً بعيداً عن المائدة وكاد يسقط وهو يجلس عليها. لم يكن يبدو لها أنه أوى إلى سريره الليلة الماضية. كان في حالة صدمة قوية، ولكنها كانت تعلم أنه لن يدعها تساعده. عليها أن تكون حذرة فلا تبعده عنها مرة أخرى. فقد كان وصوله إلى البيت سالماً بمثابة أعجوبة. وقيادته السيارة وهو بهذه الحالة كان يمكن أن يؤدي به إلى كارثة.

لم يأخذ صنع الشاي وتحميص الخبز أكثر من دقيقتين.

قالت وهي تضع أمامه الخبز والشاي: «هاك. إن عليك أن تأكل شيئاً.»

أومأ برأسه مطيعاً وقضم لقمة ولكنه لم يدعها للجلوس معه. ولم تكن هي في العادة، بحاجة إلى دعوة منه لذلك. ولكنها لم تشأ أن تفترض أي شيء يتعلق به. وبدلاً من ذلك تركت المطبخ إلى الخارج لتحضر جريدة الصباح، كانت جارتها القريبة، وهي زوجة طبيب أمراض جلدية وشديدة الولع بالعمل في الحديقة، كانت تشذب صفاً من أشجار الورد بين منزليهما فابتدأت بالحديث الذي لم تستطع تامارا بتره دون أن تبدو فظة.

مرت خمس دقائق قبل أن تستطيع التخلص منها،

وعندما عادت إلى المطبخ، وجدت كلاي نائماً ورأسه بين ذراعيه. وامتلأ قلبها عطفاً. يا للعزيز المسكين إنه محطم تماماً.

بعد ان جمعت الأطباق الفارغة بكل هدوء، ووضعتها في الحوض، تقدمت تقف بجانبه تراقبه أثناء نومه. كان يبدو غاية في العجز وعدم الارتياح في نومه على المائدة بهذا الوضع. لو أنه فقط يسمح لها بأن تخبره بوجهة نظرها من القصة، لما كان شعوره بأنه مخدوع، في مثل هذه القوة.

ابتدأ يتحرك، فهزته برقة بالغة: «كلاي، استيقظ ودعني أساعدك في الصعود إلى غرفتك فترتاح.»

فرفع رأسه يتمتم بخشونة وهو يعاود وضع رأسه على المائدة: «لا أريد رعايتك. لا أريد أماً فإن لديّ واحدة.»

شعرت بالارتياح لأنه، على الأقل لم يصرخ بها، عادت لتقول: «أعلم ذلك، ولكنك بحاجة إلى الراحة، ولن ترتاح إلا في غرفتك. استيقظ فقط بشكل يكفي لكي أساعدك في الصعود إلى الطابق العلوي.»

وهذه المرة لم يرفع رأسه فقط، وإنما دفعها عنه وهو يجلس قائلاً: «لست بحاجة إلى مساعدة.» ووقف مترنحاً، ثم كاد يهوي إلى الأرض، إلى أن تماسك واستدار يصعد السلم. وعندما أخذ يجر نفسه صاعداً درجة درجة، كانت هي في أثره.

وصل متعثراً إلى غرفته ومن ثم انهار على جانب السرير وهو يئن. كان نائماً على غطاء السرير، ولكنها لم

تشأ أن تجعله ينهض مرة أخرى. فأحضرت دثاراً خفيفاً غطته به.

في هذه الأثناء كان هو قد نام، أو ظنته على الأقل، ولدهشتها الشديدة، إذا به يهمس: «آه، يا حبيبتي، لشد ما أحبك.» ثم إذا به يستغرق في نوم عميق.

أغلقت تامارا باب غرفة النوم بهدوء، ثم قفزت تهبط السلم بسرعة بالغة.

لشد ما أحبك. لشد ما أحبك. لقد اعترف بذلك. إنه يحبها.

هل يعني هذا أنه سيصفح عنها؟ وأنه ما زال يريدها رغم خداعها له؟ وأنه سيعترف بها أماً لفرانسي؟ وأنه ما زال يريد أن يمنحها أولاداً؟

لم تدم بهجتها هذه سوى ربع الساعة هدأت بعدها لتتخلى عن افكارها تلك وتأخذ في مواجهة الحقيقة القاسية.

أخذت أولاً تحاول تقييم الوضع، بينما ابتدأت في إعداد الغداء وكانت تقف أمام الثلاجة تلقي نظرة شاملة على ما لديهم من اللحومات. ماذا عندنا؟ إن كلاي يحب الكستلاتة المشوية ولكن فرانسي لا تحبها. ولكن فرانسي وكلاي يحبان، هما الاثنان، الدجاج...

ثم توقفت وقد أصيبت بصدمة، إن فرانسي غير موجودة لقد تركها كلاي في المزرعة مع جديها، ولكن لماذا فعل ذلك بينما جاء هذا الصباح ليخبر تامارا أنه يحبها وقد صفح عن كل شيء؟ ولماذا ما زال يشعر بكل ذلك العذاب إذا كان قد حلّ المشكلة كما يحب؟ لماذا ما زال يبدو غاضباً منها إذا

كان قد اكتشف فجأة أنها حبيبة عمره ولا يستطيع العيش من دونها؟

عند ذلك تبددت افكارها لتواجهها الحقيقة الباردة القاسية. إن كلاي لا يحبك، أيتها الحمقاء. حتى المودة لا يشعر بها نحوك. إنه في الواقع، لا يكاد يطيق البقاء بقربك. صحيح هو قال انه يحبك، ولكنه لم يكن يتحدث إليك. لا بد أنه وهو بين الإرهاق والنوم، قد ظن أن أليسيا هي التي تكلمه. إنها أليسيا التي يريد. أليسيا التي يستميت في حبها إلى درجة يفضل معها أن يعيش مسترجعاً صورها في خياله.

وأغلقت باب الثلاجة بفتور ثم ابتعدت.

بعد أن رفعت أجزاء الفنجان المكسور عن الأرض، توجهت إلى المكتبة حيث رفعت سماعة الهاتف واتصلت بالمزرعة، وأجابتها والدة كلاي: «أنا تامارا يا روث، أريدك فقط أن أطمئنك إلى أن كلاي هنا. إنه ما زال غاضباً مني، ولكنني استطعت أن أجعله يأكل شيئاً، سقط بعدها نائماً على المائدة. لقد ساعدته للوصول إلى غرفته وهو مستريح الآن تماماً وقد يمضي الساعات نائماً.»

فقالت روث شاكرة: «أنا أقدر لك هذا الاتصال بي لكي تطمئنيني يا تامارا، لقد كنت شديدة القلق عندما خرج في سيارته. هل قلت إنك ساعدته للوصول إلى غرفته؟»

فأدركت تامارا قصدها فقالت: «لا تأخذي لهذا أيّ معنى، فهو لم يرض بمساعدتي له إلا مرغماً ولأنه لم

يستطع القيام بذلك بنفسه. أظن... أظن بإمكانك أن تعتبري أنه كان في حالة انهيار، ولم أعرف ما أفعل.» ولم تشأ أن تتحدث عن مخاوفها وهي تتابع قائلة: «أعلم أنه لا يريدني أن آخذه إلى الطبيب...» وأنهت كلامها وهي تشهق باكية.

فقالت روث: «إذا شئت نصيحتي، فأنا أرى ألاّ تفعلي شيئاً. فقط دعيه ينام، فهو بحاجة إلى هذا أكثر من أيّ شيء آخر. فمن تجاربي أثناء تربية أولادي، هو أن النوم العميق هو أكثر الأمور شفاء.» وترددت، ثم عادت تقول: «والآن، دعينا نتكلم عنك، يبدو أن حزنك يعادل حزن كلاي، هل أنت بخير؟»

كبحت تامارا شهقة أخرى. إنها لا تريد أن تبكي أكثر من ذلك. لم يبق في عينيها دموع. فقالت بصدق: «أشعر وكأن فأساً قد هوت عليّ ولكنني تعودت على التماثل، فلدي تجارب كثيرة، ولهذا سأنجو هذه المرة أيضاً. فقط لو أستطيع أن أجعل كلاي يستمع إلى دفاعي عن نفسي في هذا الأمر. ولكنه شديد الغضب مني...»

فقاطعتها روث: «إن جرحه بالغ، وقد فارقه الآن الكثير من اضطرابه. عليك أن تمنحيه وقتاً يستجمع فيه شتات نفسه. وأثناء ذلك إذا أردت أن تتحدثي فأنا أحب أن أستمع إليك.»

فاتسعت عينا تامارا: «أحقاً ستستمعين إليّ؟»

فأجابت روث مؤكدة: «طبعاً. إنني آسفة لأنني كنت غاضبة منك أمس. ولكن كلاي كان يتكلم كالمجنون فلا يفهم أحد منه شيئاً. كانت الأسرة كلها في هرج ومرج. فإذا

أمكنك أن تسمعيني القصة منذ البداية وتخبريني بما حدث بالضبط، فسأكون شاكرة لك على الدوام.»

وشعرت تامارا بالهدوء، لقد وجدت أخيراً من يستمع إلى وجهة نظرها. وقد لا تصدقها روث، ولكنها ستستمع على كل حال وستحاول أن تفهمها: «أنا... سأحدثك عما قاد إلى تلك العاصفة أمس. ولكنني ما زلت لا أعرف ما حدث قبل أن يخرج كلاي من مكتبه بذلك الشكل العاصف.»

ابتدأت تتحدث عن خلفياتها الأسرية، ثم زواجها المتهور وحملها، ثم وفاة زوجها، أعقبه هجرة والديها إلى ولاية أخرى. حدثتها عن تحطم قلبها وهي تضع توقيعها متنازلة عن طفلتها. نفورها من والديها، ضيق ذات اليد، عدم توفر العمل ولا المال ولا أي شيء. وأخيراً قرارها للبحث عن ابنتها.

قالت بصوت حزين: «إنني لم أقصد قط التدخل في حياة فرانسي. كل ما كنت أريده هو أن أراها وأطمئن إلى أنها تحظى برعاية جيدة. وعندما جئت إلى سان أنطونيو لم يكن لديّ فكرة عن أن زوجة كلاي قد ماتت. وهكذا عندما وجدت أنه أرمل وبحاجة إلى مربية لفرانسي... حسناً، لا بد أنك تفهمين... كان هذا الوضع مساعدة لي بحيث لم أستطع تجاهله.»

وصدرت عنها شهقة أخرى كادت تمزقها، فأخذت نفساً عميقاً ثم تابعت: «كان يجب أن أخبر كلاي بأنني والدة فرانسي ولكنني كنت أعلم أنه سيرفضني حينذاك، ولهذا لم أستطع القيام بذلك. إنني أحبه بقدر ما أحبها وأنا لن أؤذي أياً منهما بتاتاً.»

وساد صمت بين الاثنتين. ثم قالت روث: «هل تقسمين بأن لا تأخذي أبداً فرانسي بعيداً عن كلاي؟»

فقالت تامارا بحرارة: «إنني أقسم، ان كلاي هو أبوها من الناحيتين القانونية والفكرية. وأليسيا كانت أمها. إن هذا رباط لا يمكنني فصمه حتى ولو شئت أنا ذلك. إن فرانسي تحبني، ولكنها تحب أباها وذكرى أمها، وهي لن تعلم بحقيقة صلتي بها إلا إذا أراد كلاي أن يخبرها.»

وساد صمت قصير مرة أخرى قبل أن تقول روث: «إنني أريد أن أصدقك، يا تامارا، بل أنا أصدقك فعلاً، ولكنك تفهمين أن وفائي الأول هو لإبني.»

فأسرعت تامارا تطمئنها قائلة: «وهذا ما يجب أن يكون وأنا أتمنى لو كانت أمي مثلك. هل من الممكن... أعني هل أستطيع أن أتحدث إلى فرانسي؟ أعدك بألاّ أجعلها تستاء من شيء.»

كان الصمت من ناحية روث هذه المرة، أطول ولم تدهش تامارا عندما قالت روث أخيراً: «أنا آسفة، ولكن كلاي ترك أوامر مشددة بألاّ يسمح لك بالتحدث إلى فرانسي هاتفياً أو أن تريها. ولدى عمال المزرعة أوامر بأن لا يسمحوا لك بالدخول إليها.»

شملت تامارا موجة من اليأس، وكانت الآن هي التي لم تستطع الكلام. ما الذي فعلته ليكون معتبراً بهذا المبلغ من السوء. نعم، لقد كذبت عليه، ولكنها لم تكن تنوي قط التسبب له بدمار أو أذى. لقد كانت منحته حباً غير مشروط أو متحفظ. وقد قبل هو هذا، وسعد به، رغم أنه كان اعترف بأن

ليس في إمكانه أن يرد بالمثل، فلماذا إذن كل هذا العناد، وهذه السرعة في ظن السوء بها؟

وعندما تكلمت أخيراً، كان ناضحاً بالألم: «إنني متفهمة، وأشكرك للاستماع إلى توضيحي...»

واختنق صوتها فقطعت الاتصال.

بقي كلاي نائماً إلى ما بعد الظهر. وملأت تامارا فراغ الوقت بأعمال لا معنى لها، حاولت القراءة، أولاً الصحيفة ثم مجلة كانت جاءت في بريد الصباح. وأخيراً رواية تحمس لها النقاد. ولكنها لم تفهم شيئاً. كان كل ما يدخل ذهنها، يعود فيخرج منه.

وعندما ابتدأت تشعر بالدوار، أدركت أن ذلك سببه عدم تناول الطعام منذ مدة طويلة. فسخنت علبة حساء، وأرغمت نفسها على ابتلاعها، ثم أدارت التلفزيون. كانت أخبار الظهيرة متوسطة الأهمية، ولكن كل شيء بعد ذلك كان فاتراً مملاً، وأخيراً أقفلت الجهاز ثم تكورت على الأريكة. كانت عيناها محمرتين من الدموع التي ذرفتها والتي أمسكتها. ربما إذا هي أراحتهما فترة...

تحركت تامارا بضيق، وأخذت تتقلب تبغي مزيداً من الراحة. كان ثمة شيء غير مستحب، وساورها إحساس بشيء يتحرك ببطء على وجنتها وكأنما هناك من يراقبها، ولكنها لم تستطع الاستيقاظ. هذا إلى أنها كانت وحدها في المنزل، ما عدا...

وفتحت عينيها فجأة، فرأت كلاي واقفاً بجانب الأريكة ينظر إليها. كان قد اغتسل وحلق ذقنه وبدّل

ملابسه، فلم يبد اكثر ارتياحاً فقط، وإنما كذلك أكثر نشاطاً واستعداداً للعمل، كان على وجهه كذلك تعبير بالغ الغرابة. كان تقريباً مزيجاً من العطف والندم، ولكن قبل أن تتمكن من حل رموزه، كان قد تلاشى وحل محله العبوس.

اندفعت جالسة وهي تفرك عينيها: «إنني لم أسمعك، أظنني غفوت...»

فقال بصوت مجرد من المشاعر: «لقد وضعتني في غرفتي هذا الصباح، فلماذا لم تذهبي إلى غرفتك أنت أيضاً بدلاً من النوم على تلك الأريكة المتعبة؟»

فنظرت إليه وقد تملكها الاضطراب: «لم أكن أظنك تريدني أن أدخل الغرفة.»

فانتفض قائلاً: «ما هذا يا تامارا؟ إن في هذا البيت العديد من غرف النوم ما يجعله كالفندق، كان يمكنك أن تنامي في أي واحدة منها.»

كان واضحاً أنها نطقت، مرة أخرى بالكلام غير الملائم. لماذا، طوال اليومين الماضيين لم تكن تتكلم إلا لتنطق بحماقة جديدة؟ حتى لكأنها ليست خريجة جامعة؟ إن عليها بعد الآن، أن تفكر جيداً قبل أن تتكلم.

وإذ صممت على الإسراع بتغيير الموضوع، اتجهت نحو القاعة وهي تقول: «أظن أن علينا نحن الاثنين أن نأكل.» وإذ اتجهت نحو المطبخ، كان هو يسير بجانبها. سألته: «هل بمقدورك تناول وجبة كاملة، أم تفضل تناول طعام خفيف؟» وكانت تحاول جهدها التحول بالحديث عن مشكلتهما إلى ما بعد تناولهما شيئاً من الطعام. ولكنه

أمسكها بذراعيها وأدارها نحوه قائلاً باستسلام: «سأخبرك بما ليس بمقدوري، وهو الشجار معك، لقد مزقني هذا أشتاتاً، فلندع إذن هذا الخصام ولنحاول التوصل إلى نوع من الحسم.»

فرفعت نظراتها إليه فعلمت أن الرعب الذي شعرت به لكلماته هذه لا بد ظهر في عينيها: «الحسم؟»

فبدت عليه الحيرة: «طبعاً، يا تامارا. إن لي الحق في أن أعلم بما تفكرين في تحقيقه من وراء مشروعك الكبير هذا، هل خططت لكل ذلك، بما فيه الزواج مني، قبل أن تأتي إلى هنا، أم أنه خطر لك بعد قدومك؟»

يبدو أنه متأكد تماماً من الأمر، ولكن ربما كان يعني بكلمة الحسم هو معرفة ما حدث.

فقالت: «لقد جئت إلى هنا لسبب واحد فقط وهو أن أرى ابنتي وأتأكد من أنها سعيدة ومعافاة. ولم يكن في نيتي أن أفصح عن شخصيتي لأيّ منكما. وأنا لم أعلم بأنك أرمل إلا بعد وصولي إلى هنا. ولو لم تذكر أنك بحاجة إلى مدبرة منزل ذلك النهار في عيادتك، لكنت عدت إلى بلدي في الصباح التالي. امنحني شيئاً من الثقة، يا كلاي. لم يكن ثمة سبيل إلى أن أعلم أنني سأقع في غرامك.»

كان في الواقع قد انكمش إزاء انفجارها هذا، وأشاح بوجهه وهو يقول بصوت أجش: «لا تقولي هذا، لا أريد سماع المزيد من أكاذيبك. كل ما أريده منك الآن هو الحقيقة.»

فمالت تامارا فجأة مستندة إلى الجدار وقد شعرت

بالانهيار في الوقت الذي استعد فيه كلاي للاستماع إلى ايضاحها للأمر، لم تشعر بالمقدرة على القيام بذلك. كانت المرارة والشكوك تملأ نفسه. وربما سينتهي بهما الأمر إلى تمزيق كل منهما للآخر.

قالت: «هذا ما كنت سأخبرك به، الحقيقة كلها ولا شيء غيرها. ولكن قبل ذلك، سأعد شيئاً نأكله. إن الشجار مع شخص يستنفد الكثير من الطاقة. ونحن الاثنان قد استنفدنا طاقتنا. هل يناسبك طبق من الآيس كريم؟»

فأومأ دون أن ينظر إليها، ثم قال وهو يبتعد: «سأنتظر في غرفة المكتبة.»

تبعته تامارا بعد دقائق حاملة صينية عليها طبقان كبيران من الآيس كريم وكوبان مستطيلان من الشاي المثلج. وضعتها على منضدة صغيرة، ثم ناولته أحد الطبقين، وكان جالساً على مقعد جلدي قرب المدفأة، ثم وضعت كوبه على منضدة صغيرة بجانبه.

جلست على الأريكة وطبقها بيدها وهي تقول راجية ان يكون في هذا الحديث القصير ما يخفف من كآبة الجو بينهما: «يقولون ان ليس للآيس كريم قيمة غذائية معتبرة. ولكنه في الحقيقة، كذلك.»

فتمتم قائلاً بصفته طبيب أسنان: «إنه سيء بالنسبة إلى الأسنان، ففيه سكر كثير.»

بدت على شفتيها شبه ابتسامة: «نعم، أنا أعلم ذلك ولكنني على استعداد للتضحية بأحد أسناني إذا كان في ذلك ما يساعدني على أن أجعلك تفهم ما سأقوله لك.»

فقال: «لا أظنني صعب الفهم أو غير منطقي. إن

فرانسي هي ابنتي الآن، ولي الحق في أن أعرف ماضيها. لم تكن المعلومات موجودة عندما تكفلنا رعايتها، إنما الآن أريد أن أعرف هذه التفاصيل، مثل، لماذا تخليت عنها؟»

هذا صحيح، فهو ليس غير منطقي، ولكنه يجعل الأمر بالغ الصعوبة بالنسبة إلى تامارا، وتنفست بعمق آملة أن يبدو صوتها ثابتاً وهي تقول: «كنت أخبرتك انه سبق لي الزواج من قبل، ولكنني لم اخبرك انني لم أكن اتممت السابعة عشرة بعد عندما ولدت ابنتي.»

كان الإجرام يبدو في عينيه دون أن يعنيها هي بذلك، ولكن تلك كانت موجهة نحوها هي، فانكمشت متكومة في زاوية الأريكة.

«تامارا.» وخفض كلاي من صوته وهو يجلس بجانبها ممسكاً بكتفيها: «تامارا، ماذا جرى، رباه هل ظننت أنني سأضربك؟»

فرفعت رأسها ببطء تنظر إليه. كان الشحوب قد كسا وجهه كما بدا عليه الذهول وهي تهمس: «ظننت أنك... ربما تفعل ذلك.»

أخذت تبكي بهدوء، فتركها تبكي وهو يتمتم بكلمات التسرية وعندما هدأت مرة أخرى، قال: «إنني آسف إذ أفزعتك. هيا، تابعي قصتك.»

فتابعت تكرار ما حدث بنفس النص الذي أخبرته لوالدته قبل فترة، ولكن عندما وصلت إلى الجزء الذي استأجرت فيه بول والاس، المخبر الخاص، قاطعها كلاي ليسألها: «هل طلبت من ذلك الرجل أن يستعمل

وسائل غير قانونية لكي يحصل على المعلومات التي تريدينها؟»

فحملقت فيه وهي تقول بغضب: «كلا، بالطبع كيف بإمكانك أن توجه إليّ سؤالاً كهذا؟»

فحملق كلاي فيها هو أيضاً قائلاً: «إنني أسألك لأن هذا ما فعله هو، لقد قدم رشوة إلى موظف في المستشفى الذي ولدت فيه فرانسي وذلك لكي يحصل منه على معلومات سرية من ملفاتهم.»

فسرى في تامارا مزيج من الذهول وعدم الاقتناع: «لا أصدق هذا! لا يمكن أن يقوم بول بمثل هذا...»

فقاطعها بحزم: «بل عليك أن تصدقي.» ثم حدثها عن المكالمة الهاتفية التي تلقاها أمس.

استمعت تامارا بحيرة، وقالت بصوت طافح بالندم: «هكذا علمت إذن بأنني والدة فرانسي. آه، يا عزيزي كم أنا آسفة، ويا لها من صدمة هائلة لا بد قد شعرت بها، لا عجب ان بدا عليك كل ذلك الانزعاج...»

فقاطعها بمرارة: «الانزعاج فقط؟ هناك أوصاف أخرى كانت تنطبق على حالتي الذهنية حينذاك، اختلاط العقل، مثلاً الهستيريا، الانسحاق...»

وفجأة، لم يعد بإمكان تامارا أن تسمع أكثر من ذلك، فوضعت يديها على أذنيها وهي تصيح: «كفى.» ونهضت عن الأريكة: «ما هذا يا كلاي؟ إنني أحاول جهدي أن أجعلك تفهم مقدار أسفي لذلك. ومقدار ما أشعر به من ذنب. إنني سأقوم بأي شيء، بأي شيء على الإطلاق لكي أضع هذا الأمر بين يديك، ولكن عليك

أن تقبل، على الأقل الاستماع وتحاول أن تصدق...»

وقبل أن تنتهي، كان كلاي قد نهض ايضاً وهو يتمتم قائلاً: «معك حق، يا صغيرتي. فأنا أتصرف دون عقل، أنا آسف، آه كم أنا آسف.»

وارتجف صوته، ما أثار دهشتها فرفعت عينيها إليه وإذا بها ترى دموعاً في عينيه. وغمرتها موجة من الحب. عليهما أن ينتهيا من كل هذا، وفي أقرب وقت قبل أن تصبح جراح مشاعرهما لا شفاء منها.

صمتا لحظة يحاولان فيها استمداد القوة. وعندما تكلم كان صوته قد عاد إلى ثباته. فقال: «أتريدين أن تستمري في قصتك إذا أنا وعدتك أن أبقى ساكتاً فلا أزعجك؟ أم تريدين تأجيل ذلك إلى وقت آخر؟ الرأي رأيك.»

كان كل ما تريده تامارا هو أن تنتهي من هذه القصة، فقالت له هذا. فعادا إلى مقعديهما لتتابع ما بدأته من كلام. كانت معاناة طويلة مرهقة بالنسبة إليها. ومع أن كلاي وعد بعدم المقاطعة، فقد كان يفعل ذلك أحياناً فيلقي عليها بعض الأسئلة. وكان على كل حال يتقبل أجوبتها دون مناقشة. وعندما انتهت أخيراً من سرد قصتها كان الارهاق قد استبد بها ورأت أنه هو أيضاً كان كذلك. وجلسا عدة دقائق صامتين وقد شردت بهما الأفكار.

ثم نظر كلاي في ساعته، ووقف قائلاً: «إنني بحاجة إلى وقت أفكر فيه، يا تامارا. إنني عائد إلى المزرعة لقضاء الليلة. هل ستكونين بخير بمفردك هنا؟ سأحجز لك غرفة في فندق إذا شئت.»

فتملكت تامارا خيبة أمل عميقة، ولكنها عنفت نفسها لتوقعها أن يتخذ قراراً سريعاً. وفي الواقع عدم قيامه بهذا هو أمر جيد الدلالة. فإذا كان بحاجة إلى تقليب الرأي في الأمر، فقد يعني هذا رغبته في تصديقها.

فقالت تطمئنه: «بل أفضل البقاء هنا. فأنا لست طفلة وأنا أستطيع العناية بنفسي.»

لم تنم تامارا تلك الليلة جيداً. فقد جعلتها تصوراتها في غاية من الاضطراب. هل سيتقبل كلاي الحقيقة الخالصة غير المنمقة التي أخبرته بها، ويصفح عنها؟ أم أنه سيرفضها معتبراً إياها أكاذيب ثم... ثم ماذا؟ لم تستطع التفكير في الذي سيحصل عند ذاك.

واستسلمت أخيراً إلى النوم قبيل انبلاج الفجر. وعندما استيقظت كانت الساعة التاسعة تقريباً. كان قد أنهت لتوها ارتداء ثيابها وكانت في منتصف الطريق إلى الطابق السفلي عندما سمعت صوت مفتاح كلاي يدور في القفل، تملكها الخوف والتوجس وهي تنتظر إلى أن فتح الباب ثم دخل. كان منظره غير مطمئن. كان يبدو بمثل سوء المظهر الذي تبدو هي عليه فهو متعب وحول عينيه هالتان قاتمتان وخطوط تنبيء عن الانزعاج في زاويتي فمه، ولم تكن فرانسي معه.

رفع رأسه ينظر إليها حيث كانت تقف على السلم. وقال بلهجة متكلفة: «صباح الخير، هل نمت جيداً؟»

فقالت بصراحة: «كلا، لم أنم جيداً.» وتابعت هبوطها إلى أن وقفت أمامه.

فقال: «وكذلك أنا لم أنم.» واستدار متوجهاً إلى غرفة

الجلوس وهو يقول: «هل لديك مانع في أن نتبادل حديثاً قصيراً. أريد أن أنتهي من هذا الأمر.»

تبعته وقد أثقل خطواتها شعور بالغ بالخوف، إلى حيث دخلا تلك الغرفة الواسعة الرسمية. أشار إليها لتجلس على كرسي أمام النافذة، ثم جلس هو على كرسي آخر إلى الناحية الأخرى من المنضدة التي كانت بينهما.

تلاقت نظرات تامارا بنظراته، فعلمت ما الذي سيقوله. ووجدت لسبب ما، أن من الأفضل أن تبدأ هي بالكلام أولاً فقالت تسأله: «إنك تظن أنني ما زلت أكذب عليك، أليس كذلك؟»

فحول نظراته بعيداً: «لا أدري ماذا أصدق.» وكان صوته قد أثقله الاحباط: «أظنك أخبرتني بالحقيقة إلى الوقت الذي تخليت فيه عن الطفلة. ولكنني لا أستطيع تقبل فكرة أنك لم تدسّي نفسك بشكل ماكر في حياتي وذلك لكي يسهل عليك الهرب بفرانسي مني في وقت ما فيما بعد. إنني، أيضاً لا أستطيع تقبل عذرك في أنك وقعت في غرامي، ووجود فرانسي ما هو إلا خير على خير كما يقال...»

فاعترضت تامارا قائلة: «أنا لم أقل هذا الكلام قط. فإن قدرتي على الاشتراك في تربية ابنتي هو أمر بالغ الأهمية بالنسبة إليّ. ولكنني ما كنت لأقول لك قط انني أحبك لو لم يكن هذا صحيحاً. وبجانب ذلك، فأنت لم تتزوجني إلا لأكون مدبرة لمنزلك، فلماذا تهتم فيما لو كنت أحبك أم لا؟»

فأجفل قائلاً: «إنك تعلمين أن الأمر لم يكن بهذا الشكل الذي تصفين، وكنت صريحاً معك على الأقل، فأنا لم

أتظاهر بالوقوع في غرامك لكي اتزوجك.» وتنفس بعمق ثم عاد ينظر في عينيها متابعاً: «إني آسف، يا تامارا.» وبدا في لهجته العذاب: «ولكن زواجنا قد تأسس على الكذب. إنني سأرفع دعوى بإبطال زواجنا هذا، وأريدك أن تحزمي أمتعتك وتتركي المنزل في أسرع وقت ممكن.»

www.elromancia.com

الفصل الحادي عشر

تملك الهلع تامارا. فلم تستطع أن تتحرك أو تنطق بشيء، وإنما جلست بكماء وقد اعجزها الحزن عن الحركة. لا بد أن هذا هو شعور كلاي عندما اخبروه أن أليسيا ماتت.

ما عدا أن خسارة تامارا كانت مزدوجة. لقد خسرت في وقت واحد، الاثنين، زوجها وابنتها الطفلة، إنه يطردها، وهي تعلم أنها إذا هي رحلت فلن ترى أياً منهما بعد الآن، فكلاي لن يسمح لها بذلك.

شعرت بطنين في أذنيها، ومع أنها كانت تراه يتكلم إلا أنها لم تكن تفهم ما كان يقول.

قال ضارعاً: «لا تبدي بهذا الشكل، يا تامارا.» وكان الخوف يتخلل ضراعته تلك. «ياليتني كنت صفوحاً أكثر من ذلك، لقد حاولت، ولكنني لم استطع مقاومة واقع انك غير موضع للثقة، لقد كذبت عليّ، وخدعتني بالنسبة لكل ما هو مهم في علاقتنا.»

وعندما تابعت سكوتها، وقف وأخذ يذرع الغرفة. «بإمكاني أن أفهم، إلى حد ما، السبب في قيامك بهذا العمل. فأنا أعرف انك تحبين فرانسي، وقد لاحظت تصرفاتك معها أثناء عيشك معي، وأنا أسلّم معك بهذا، ولكن ذلك يجعلك اكثر خطورة.»

ووقف أمامها وكأنه يريد أن يؤكد ما يقول: «ذلك أنه

يبدو انك لا تشعرين بتأنيب الضمير إذا احتاج الأمر إلى أن تكذبي لكي تحصلي على ما تريدين، فإذا نحن استمررنا في هذا الزواج الزائف، فإنني لا أدري متى يتملكك الضجر من التظاهر بحبي، وهكذا تأخذين فرانسي وتختفين عن العيان وأنا لن أمنحك هذه الفرصة.»

كانت تامارا تجلس منحنية الرأس، لم تستطع أن تنظر إليه فيرى ما كانت كلماته تعكس في عينيها من العذاب، كما أنها لم تستطع أن تلومه، فلو كان الأمر بينهما معكوساً، وكان هو الذي كذب عليها وخدعها، لما وثقت به مرة أخرى، كذلك.

بعد دقائق من الصمت، سألها بلهفة: «تامارا. هل أنت بخير؟ هل تسمعينني؟ هل تفهمين ما أقوله؟»

فأومأت برأسها، ثم تنحنحت وهي تجيبه بصوت أبح: «نعم، إنني أفهم، وأنا لا ألوم في ذلك إلا نفسي، وأنا آسفة فقط لأنك لا تصدق أنني أحبك بنفس القوة التي أحب بها فرانسي.»

فتنهد وهو يتمتم بلهجة مرتجفة: «إنني آسف أيضاً بالنسبة لهذا الأمر، اكثر أسفاً من أن تتصوري.» وعاد يذرع الغرفة. «أرجو لخيرنا نحن الاثنين، أن توافقي على الرحيل خلال الساعات القليلة القادمة. لقد الغيت كل مواعيدي في العيادة لهذا النهار، كما أن فرانسي تأخرت عن مدرستها، أظن من المهم بالنسبة إلينا نحن الثلاثة، وخصوصاً بالنسبة إليها، أن نعود إلى الحياة الطبيعية في أسرع وقت ممكن.»

كان رأس تامارا يدور، كانت الأمور تحدث بسرعة

فائقة. كيف بإمكانها أن تتخذ قراراً منطقياً في حين لا تستطيع أن تفكر بشكل مستقيم؟ وهل هو لا يريدها حتى أن ترى فرانسي مرة أخرى؟ أن تقول لها وداعاً؟ وكيف سيكون تأثير كل ذلك على الطفلة؟ ألن تفكر في أن تامارا قد هجرتها ليس إلا؟ كلا، إنها لن تسمح بذلك.

وعاد عقلها إلى العمل مرة أخرى. «كلاي، ألا يمكنك أن ترى المشكلات التي ستنتج عن تركي المفاجيء لفرانسي؟ فهي الطريقة التي فقدت فيها أمها، هكذا فجأة ودون سابق إنذار، يبدو أنها نجت من تأثير تلك الخسارة، وبشكل حسن جداً، وهي تعتبرني الآن...»

وترددت، لم تستطع أن تقول أمها ذلك أن كلاي لن يقبل بذلك أبداً. فتابعت تقول: «تعتبرني بمثابة أم لها. فإذا أنا اختفيت من حياتها أيضاً، فإن ذلك قد يحدث لها أذى لا سبيل إلى إصلاحه، وذلك بالنسبة إلى صورتها الذهنية عن نفسها.»

توقف كلاي عن السير ووقف لحظة جامداً في مكانه، ثم قال معترفاً: «إن هذا لم يخطر ببالي قط، إنني أوافقك على أن ذلك قد يجعل خسارتها لك اكثر إيلاماً لها، ولكن لماذا يدمر هذا اعتبارها لنفسها؟»

فأدركت تامارا أن عليها أن تكون بالغة الحذر في تناولها هذا الأمر، فأجابت قائلة: «حتى في سنها هذا، فهي سترى الأمر وكأنه هجران لها، وعندما تكبر وتزداد معرفة بالنسبة للتكفل، ستتصور أن أمها التي ولدتها قد هجرتها هي أيضاً، والأمر لا يتطلب طبيباً في علم النفس لكي نعلم التطور الطبيعي في

النفس نتيجة لذلك، وعندما تصبح في سني المراهقة، وربما قبل ذلك ستعتبر فرانسي نفسها فتاة غير مرغوبة ولا محبوبة.»

فاستدار كلاي ببطء ينظر إليها: «أرى كلامك هذا معقولاً. ولكن لماذا علي أن أثق بما تقولين؟»

فهزت رأسها بحزن: «لا أتوقع منك ذلك، ولكن لأجل مصلحة فرانسي، أرجوك أن تتحدث إلى طبيب نفسي قبل أن تطردني. لا بد أنك تعرف أحداً، صديقاً أو جاراً أو احد مرضاك هو مؤهل في الطب النفسي، فقط إتصل به والق عليه هذا السؤال على سبيل الإفتراض. إن بإمكانهم أن يخبروك ما الذي يحدثه مثل هذا الكبت من دمار خطير في النفس.»

إستمر ينظر إليها عدة ثوانٍ، ثم استدار وغادر الغرفة، عند ذلك أسرعت تامارا في تكوين خطة تطلب فيها مهلة عدة أسابيع وهذا كل ما كان يمكنها أن تأمل فيه، ذلك أنه لم يكن هنالك أمل في أن يغير عقله من ناحية رفع دعوى إبطال الزواج، ولكن بكثير من التمني والحظ، قد يمكنها أن تجعل انهيار أسرتهم أقل إيلاماً لابنتها الصغيرة العاجزة، فتكون هذه آخر نفحة حب من والدة ليس لدى فرانسي فكرة عن أمومتها لها.

وعندما عاد كلاي إلى الغرفة، كان يبدو عليه مزيج من الحيرة والإحباط معاً. «لقد وافقك الطبيب النفسي الذي اتصلت به على رأيك هذا. لقد اقترح أن نمنح فرانسي فرصة تتعود فيها على فكرة أنك قد ترحلين قريباً لمدة طويلة، وبعد رحيلك يمكن أن يمدد ذلك الغياب إلى أن أدرك أنا أنها

أصبحت مستعدة لقبول فكرة أنك لن تعودي.» وانهار على كرسي وأخذ يفرك وجهه بيديه. «لماذا لم تنفذي وعدك في ذلك العقد بينك وبين المستشفى والذي ينص على بقائك بعيدة عن حياة الطفلة، فتتركين للوالدين اللذين أراداها، فرصة تربيتها؟ لماذا لم تتركينا أنا وفرانسي وحدنا بسلام؟»

وكانت تامارا تلقي على نفسها السؤال نفسه، فقالت: «من الواضح أنني عندما قررت البحث عن طفلتي، كنت أفكر بعواطفي وليس بعقلي. وكل ما يمكنني أن اخبرك به هو أنني عندما ابتدأت العمل كان الأمر يبدو عديم الضرر، هل ستأخذ بنصيحة الطبيب تلك، أم أنك تفضل أن أغادر المنزل الآن؟ إنني سامتثل لكل ما تريده مني.»

فتنهد كلاي. «ليست القضية هي ما أريده، بل ما هو الأفضل بالنسبة لفرانسي. صدقيني أنني لا أعرف كيف اتصرف بالنسبة لهذا الأمر، ولكن الطبيب النفسي الذي استشرته، يفوقني علماً بشكل بالغ، فالأفضل إذن أن أتبع نصيحته. فاذا شئت أن تمكثي فترة أسبوع أو نحو ذلك، فأنا على استعداد للقيام بهذه التمثيلية الصغيرة. ولكنني لا أدري كيف أجعل لك عذراً مقبولاً عند فرانسي لرحيلك.»

ولم تكن تامارا تعلم كم بإمكانها أن تتحمل من هذا العذاب اكثر مما تحملته. ولكنها ستمسك بأية فرصة تمنحها مزيداً من الوقت تقضيه مع الشخصين اللذين تحب في هذا العالم اكثر من أي شيء آخر. فقالت: «سأبقى، وإذا سمحت لي فسأساعدك في تأليف قصة مقبولة نقولها

لفرانسي.» وصدرت عنها ضحكة مرة. «وبعد، لقد كنت قلتها بنفسك. فأنا كذابة عالمية.»

• • •

ذهب كلاي ليحضر ابنته من المزرعة، وأثناء ذلك، أخذت تامارا تؤلف قصة تبدو سبباً مقبولاً لعودتها إلى إيوا. وفي ذلك المساء، بعد أن نامت فرانسي، طرحت الفكرة بينها وبين كلاي للمناقشة حيث أبدى بعض الملاحظات إلى أن اتفقا على صيغة معقولة.

وعندما حان أوان نومهما، سادهما الارتباك. لقد صعدا السلم معاً، ثم توقفا أمام باب غرفتهما وقال كلاي بجفاء: «إنني سآخذ ملابسي التي سألبسها في الصباح وأنام في أحدى الغرف الأخرى. وغداً سأنقل كل أشيائي من هنا.»

«كلا.» ردت عليه بذلك محتجة على الفور قبل أن تستطيع كبح كلماتها. فاتسعت عينا كلاي، ولكنها ازدردت ريقها ثم عادت تقول: «أعني أنني أنا التي سأرحل. فلا حاجة بك إلى تغيير مكانك. سأعود أنا إلى الغرفة التي في آخر القاعة.»

بدا عليه وكأنه سيجادلها، ولكنه عاد فهز كتفيه. «كما تريدين.» ثم أشاح بوجهه.

وفي الصباح التالي كان واضحاً أن أياً منهما لم ينم جيداً.

وفي ذلك المساء بعد العشاء، أخبرتهما تامارا بتلك الكذبة التي اخترعتها لمصلحة فرانسي. ولكن هذه المرة

شاركها كلاي في هذه، أخذا الفتاة الصغيرة إلى المكتبة حيث وضعت تامارا ذراعها حول الفتاة وهما تجلسان معاً على الأريكة، ثم ابتدأت تقول: «حبيبتي، إن لدي خبراً سأقوله لك، لقد اتصلت أمي بي اليوم. قالت إن أبي قد كان أصيب بذبحة صدرية وهو الآن في المستشفى، وإذا لم تتحسن حالته، سيكون عليّ أن أذهب لرؤيته.»

فرفعت فرانسي نظراتها إليها تسألها: «أيمكننا الذهاب أنا وبابا، معك؟»

فهزت تامارا رأسها: «لا أظن ذلك، إن بابا مشغول في عيادته، كما أن عليك أن تذهبي أنت أيضاً إلى المدرسة.»

فسألتها بقلق: «ولكن من سيعتني بنا؟»

فأجاب كلاي على هذا السؤال: «آه، هناك من سيعتني بنا جيداً، إن هيرتا غروس ستعود من نيومكسيكو لتكون مدبرة بيتنا مرة أخرى.»

كانت إعادة هيرتا هي فكرة كلاي، وكانت فكرة جيدة، فقد بقيت مربية لفرانسي منذ الوقت الذي احضراها فيها من المستشفى، إلى أن تقاعدت واستلمت تامارا منها العمل، وعودتها ستساعد على تخفيف الخسارة التي ستشعر بها فرانسي عندما ترحل تامارا، وقد شعرت هيرتا بالسعادة عندما اتصل بها كلاي يدعوها للعودة.

من الظاهر أن التقاعد لم يعجبها، ولكنها لن تستطيع ترك منزل ابنتها قبل اسبوعين. وهكذا لن يكون بإمكان تامارا أن تترك مدينة سان انطونيو قبل هذا الموعد.

كان سرور فرانسي بالغاً عندما علمت بقرب عودة هيرتا ما جعلها تنسى بسرعة احتمال سفر تامارا. وعلى كل حال،

فالبذرة قد غرست، وستروى بأخبار الإتصالات الهاتفية من حين لآخر مما يمنح الطفلة وقتاً تتعود فيه على فكرة غيابها.

كان الأسبوع التالي محنة هائلة بالنسبة لتامارا. كانت تستغل ما بقي لها من وقت في اختزان ما تستطيعه من وجود ابنتها. أما كلاي فقد أبقاها بعيدة عنه، فكان لا يتحدث معها إلا عند الضرورة، والوقت القليل الذي كانا يمضيانه معاً كان يمضيه صامتاً أو متحدثاً إلى فرانسي، وفي الليل يذهبان إلى غرفتيهما المنفصلتين، وغالباً ما كانت تامارا لا تستطيع النوم إلا بعد أن تبكي ماشاء لها البكاء.

ولكن كلاي وتامارا لم يكونا يتكلمان بخشونة أو يرفعان من صوتيهما، لقد كان جو المنزل كئيباً خالياً من الضحك أو المرح، وكانت تامارا ترجو ألاّ تلاحظ فرانسي ذلك لصغر سنها، ولكنها مالبثت أن لمست خطأ هذا التقدير.

لقد سألت فرانسي أباها مرة باهتمام واضح ما إذا كان متخاصماً مع تامارا. ولكنه وتامارا انكرا ذلك بشدة، وبعد ذلك أخذ كلاي يبدي بعض المودة نحو تامارا في حضور الطفلة، وعلى كل حال، يبدو أن هذا لم يقنعها.

لقد استطاعا، هما الاثنان، أن يهدئا من قلق الطفلة، إنما بشكل مؤقت فقط، ففي ساعة مبكرة من صباح يوم الثلاثاء، وبعد عشرة أيام من ذلك الإنفجار العنيف الذي حطم زواجهما، استيقظت تامارا فزعة على صرخة عالية ثاقبة. «ماما، ماما، كلا، كلا، أرجوك يا ماما.»

كانت فرانسي تصرخ برعب.

وركضت تامارا من خلال الحمام الذي يفصلها عن غرفة فرانسي وذلك في الوقت الذي كان فيه كلاي يركض مقبلاً من غرفته، وصل أولاً إلى السرير وحمل الطفلة التي كانت تتلوى ألماً بين ذراعيه رغم أنها كانت تضربه بقبضتيها.

وبينما كان هو يهزها برفق لكي تستيقظ، كانت هي تصرخ مولولة. «ماما، ماما.»

قال لها وهو يجلس على جانب السرير: «فرانسي، حبيبتي، استيقظي، أنا بابا، اهدإي، إنه حلم مزعج فقط.»

أدركت تامارا، رغم ذهولها وخوفها، أن هذا الوضع لم يكن جديداً بالنسبة إلى كلاي، فقد كان يتصرف بمعرفة تامة، وكأنما سبق وحدث هذا الأمر مرات كثيرة من قبل، واستيقظت فرانسي تدريجياً ثم تعلقت بكلاي وهي تشهق وترتجف بذعر، وكان هو يسري عنها.

وقفت تامارا بعيداً وهي تتأمل كيف كان كلاي يهدىء من روع الإبنة المذعورة وذلك بكل رقة ومحبة. لقد كان تأثرها بحنانه الدافق ساحقاً، ما جعل حبها له يزداد إلى حد لم تعد تستطيع استيعابه، انها لن تقلق أبداً بعد الآن على ابنتها الصغيرة. فهي لم يعد لديها أي شك في أن كلاي سيقوم بكل بواجبه الأبوي لكي تبقى فرانسي سعيدة آمنة.

وبكل هدوء، عادت إلى غرفتها حيث احتذت خفها، ثم هبطت السلم إلى الطابق السفلي، ومع أن هذا الوقت من السنة كان الجو فيه بارداً في إيوا، فقد كان الجو هنا في سان انطونيو ما يزال دافئاً، فتحت الباب الأمامي وخرجت

إلى الشرفة، لم يكن ثمة حاجة إلى النور. لقد كان ضوء البدر المكتمل والنجوم يلف الكون، وجلست على كرسي من الخيزران.

كانت لدى تامارا أمور هامة تستوجب التفكير، وعليها أن تقوم بذلك الآن. ذلك أن محاولاتها المنطقية في سبيل اكتساب مزيد من الوقت مع ابنتها، قبل أن تترك مدينة سان انطونيو، هذه المحاولات لم تسر بالطريقة التي كان مفروضاً أن تكون...

وكانت من الشرود مع أفكارها بحيث لم تسمع كلاي وهو ينزل إلى الطابق الأرضي إلا بعد أن انتبهت إلى صوته يناديها، فنادته: «إنني هنا في الشرفة يا كلاي.»

قال معنفاً: «كنت أفتش عنك في كل مكان. لماذا لم تخبريني بأنك خارجة إلى الشرفة؟»

فرفعت رأسها تنظر إليه بدهشة، قالت: «لم يخطر ببالي أنك تريد أن تعلم.»

فتنهد، ثم تقدم وجلس على كرسي بجانبها وهو يقول بضجر: «لا تقومي بالاعيب معي.» ثم أخذ يفرك عينيه.

«إنني لا أقوم بأية ألاعيب. هل هدأت فرانسي الآن؟ وهل نامت؟»

فأومأ مجيباً: «نعم، انها بخير الآن.»

فقالت: «ليست هذه أول مرة يحدث لها هذا، أليس كذلك؟»

فأجاب: «كلا، ليست أول مرة، بعد موت أليسيا المفاجيء ابتدأت الكوابيس تنتاب فرانسي، كانت تحلم بأن أمها تركتها وذهبت وأنها هي بغاية الرعب لأنها لا تجدها. لقد اخذتها إلى طبيب نفساني، وهو نفسه الذي

كنت استشرته الأسبوع الماضي، لقد استغرق الأمر عدة أشهر، ولكن في الوقت الذي جئت أنت فيه إلينا، كانت الكوابيس قد توقفت وكذلك العلاج النفساني.»

فاكتسحت تامارا موجة من الشعور بالذنب، فتمتمت: «والآن، ها قد عادت مرة أخرى، لماذا لم تخبرني ان الكوابيس كانت تنتابها بعد موت أمها عند اقتراحي إرجاء رحيلي من هنا؟»

فهز كتفيه: «لم أجد ذلك ضرورياً.»

«ولكن، قد يكون ذلك...»

فقاطعها قائلاً: «تذكري ياتامارا أنني كنت حينذاك قد تحدثت إلى طبيبها النفساني وذلك حسب رأيك، لم نتحدث عن الكوابيس، ولكن رأيه كان حازماً في أن ليس لك أن تختفي من حياتها بنفس الطريقة التي رأت أليسيا تختفي فيها، لم يستطع أي منا أن يفكر بهذا التعقد الذي حدث.»

ولكن تامارا لم تطمئن، لقد تأكدت الآن من أنه كان عليها أن ترحل عندما اخبرها كلاي بذلك وتتركه يواجه أي مشكلة قد يسببه هذا لفرانسي، ولكنها لم تفعل. والآن قد حان لها أن تخرج من حياتهما قبل أن تسبب المزيد من الدمار.

تنفست بعمق وقالت محاولة أن يكون صوتها هادئاً: «بما أن خطتي كما يبدو تسبب للطفلة المسكينة عودة الكوابيس مرة أخرى، فأنا لا أرى سوى حل واحد، بعد أن تذهب فرانسي إلى المدرسة هذا الصباح، سأحزم أمتعتي وأرحل إلى إيوا.»

فذهل كلاي وأخذ يحدق فيها، وقال: «ستفعلين ماذا؟» بدا عليه الذهول وكأنه لم يكن قد طلب منها قط الرحيل.

قالت: «أنا أعلم أن عدم انتظاري مجيء هيرتا سيضايقك ولكنني لا أريد أن اعرض ابنتي إلى مزيد من المعاناة التي تعانيها حالياً، إنها تتوقع مني أن أرحل فجأة، ولهذا لن يكون الأمر صدمة لها. وقبل أن يمضي وقت طويل ستكون قد نسيت كل شيء عني.»

فقال عابساً: «انها ستنسى بكل تأكيد، انها ستنسى عنك كل شيء مثلما سأفعل انا.»

أجفلت، كان يتهكم، ولكنه كان لا يعدو الحقيقة في قوله هذا، فعندما ترحل هي وتعود هيرتا، سينسيان عنها كل شيء، ولكن كيف ستعيش هي بقية حياتها من دونهما؟

قالت: «بالضبط، وأثناء ذلك لا بد أن لديك اصدقاء أو جيراناً تستطيع فرانسي المكوث عندهم بعد حضورها من المدرسة إلى أن تعود أنت من عيادتك.»

لم يجب، وإنما نهض وسار إلى درابزين الشرفة حيث حدق نحو الشارع المضاء، ثم سألها بصوت أجش: «لماذا تتحرقين الآن إلى الرحيل؟ عندما تكلمنا في البداية عن ذلك، كنت واثقة من أنه من الخطأ تعريض فرانسي إلى هجران آخر حسب تعبيرك.»

فقالت بأسى: «لقد كنت مخطئة، ولكن هذا شيء غير جديد. يبدو أنني لا استطيع أن أقوم بعمل صائب فيما يتعلق بها.»

«لماذا تظنين نفسك مخطئة؟»

«لأن كوابيسها عادت إليها، لم أكن أتوقع أنها ستلاحظ

هذا الخلاف بيني وبينك، كان هذا خطأً فادحاً، فهي لم تلاحظه فقط، وإنما خافت منه.»

فقال: «وهل أنت الوحيدة في هذا المنزل المؤهلة لاقتراف الأخطاء؟»

فقالت وقد لسعتها سخريته: «هذا ما يبدو، على الأقل أنا هي التي تخطىء. فقد كنت أنت وفرانسي في أحسن حال إلى أن حضرت أنا إلى هنا.»

فقال: «كنا قد أخذنا بالاعتياد على نمط حياتنا الجديد، وهذا كل شيء.» واستدار ينظر إليها: «ما الذي يجعلك واثقة من أنك إذا أسرعت بالرحيل الآن بعد أن عادت إليها كوابيسها، فإن هذا لن يجعل حالتها أسوأ.»

كان لافتراضه هذا مثل طعنة السكين في قلبها، فصرخت: «اف منك يا كلاي، لماذا تتعمد تعذيبي؟ أنا لست واثقة من أي شيء، ومع ذلك أقوم بهواية التجارب النفسية بما يتعلق بسعادة إبنتي.»

وهذه المرة أشاحت بوجهها عنه ثم تابعت وقد خفضت صوتها: «لقد وجدت الجواب على ما جئت إلى هنا لأجله، فالطفلة التي تخليت عنها منذ ثماني سنوات هي أيسر حالاً كثيراً عندك مما كان يمكن أن تكون معي، إنك أب مثالي لا يكاد يوجد مثله، وهي آمنة معافاة وسعيدة، وقد قمت بعمل ممتاز في التوجه بها خلال محنة فقدها لأمها، إلى أن دخلت أنا حياتكما فأفسدت كل جهودك تلك...»

وتهدج صوتها وأمسكت بالدرابزين وهي تتنفس بعمق: «لماذا تجادلني في قرار الرحيل مبكراً، يا كلاي؟ منذ عشرة

أيام كنت تريد التخلص مني في أسرع وقت، إنك لا تريدني هنا، إنك تكرهني...»

وعاد صوتها يتهدج مرة أخرى، وساد الصمت حولهما عدة ثوان، ثم تكلم كلاي، مكرهاً بصوت منخفض: «إنني لا أكرهك يا تامارا، إنني أحبك.»

فذهلت، ثم قالت مستنكرة: «أنت... أنت تحبني؟» ثم استدارت إليه.

ملامحه كانت تعبر عن الحزن والجفاء في نفس الوقت، مما يعني انه إذا كان صادقاً في ما قاله لتوه، فهو ليس مسروراً به.

قال بحزن: «أخشى أنني أحبك فعلاً، لماذا تظنين ردة الفعل عندي كانت بمثل ذلك العنف والقسوة عندما أدركت أنك كنت تخدعينني؟ لقد كنت ذلك الحين بالضبط قد أدركت لأول مرة أنك، بعذوبتك وتصرفاتك المليئة بالحنان، قد استطعت ليس فقط اقتحام منزلي وحياتي بل قلبي كذلك.»

ونظر بعيداً وهو يتمتم بصوت أقرب إلى الهمس: «لقد كاد يقتلني هذا.»

ولم تستطع تامارا سوى الصمت وقد أعمتها الدموع وأخرسها الألم، لقد ظفرت أخيراً بحب كلاي ولكن ليسلبه منها تخطيطها الملتوي رغم سلامة نيتها.

قال متأملاً: «كنت واثقاً من أن ليس بامكاني أن أحب امرأة أخرى بعد أليسيا بنفس العمق الذي أحببتها به، ولهذا لم أستطع مواجهة شعوري نحوك إلا بعد فوات الأوان.»

وشعرت تامارا بالدوار وعدم الفهم: «فات... فات الأوان؟»

فأومأ برأسه مجيباً: «هذا ما أراه، فالزواج الناجح إنما يقوم على الثقة، وأنا لم يعد بامكاني الثقة بك، يا ليتني أستطيع. لقد حاولت فعلاً، ولكن...»

أدركت تامارا أنها خسرت أكثر من مجرد حب كلاي، لقد خسرت مع ذلك الحب كل حظ لها بالسعادة، إنها لن تحصل مرة أخرى على الزوج والبيت والأسرة كما هو الحال مع كلاي وفرانسي. فقد كان هذا كل ما كانت بحاجة إليه لتكون سعيدة، ولكن كلاي هو من يمكن أن يوفر لها كل هذا، وهو لن يفعل، أو بالأحرى لا يستطيع.

قالت وهي تتوجه ببطء نحو الباب: «إنني ذاهبة إلى غرفتي. فأنا سأكون بحاجة إلى شيء من النوم ما دمت سأقوم برحلة طويلة بعد ساعات، سأرسل فرانسي إلى المدرسة، ولكن عليك أن تتدبر أمر وجودك هنا حين عودتها. أخبرها أي تفسير تريده لغيابي.»

استدارت تامارا داخلة إلى المنزل وهي رافعة الرأس، ولكنها لم تنم بقية الليل إلا قليلاً.

عندما أيقظها المنبه ونزلت إلى الطابق الأرضي، كان كلاي وسيارته قد اختفيا عن الأنظار.

استمتعت بآخر لحظاتها مع فرانسي بينما كانت تصنع طعام الإفطار وتساعدها في الاستعداد للذهاب إلى المدرسة، كانت تامارا تريد بعد رحيلها أن تتذكر الطفلة هذا الوقت بصفته وقتاً سعيداً. وهكذا جعلت مزاجها مرحاً وهما تتحدثان، وتروي كل منهما للأخرى النوادر وتغنيان معاً أغاني سخيفة.

مضى كل شيء على ما يرام إلى قبل وصول حافلة

المدرسة بدقائق، عند ذلك شعرت تامارا بالهلع يتملكها. يجب ألاّ تدع نفسها تنهار الآن. ذلك أن فرانسي لم تعرف بعد أن تامارا راحلة، كما أن تامارا لم تكن تريدها أن تعرف بذلك قبل عودتها بعد الظهر.

أخذت تساعد فرانسي على ارتداء سترتها، ثم أرغمت نفسها على ابتسامة متألقة وهي تقول: «ما رأيك الآن في عناق قوي فوق العادة وقبلة كبيرة قبل أن تذهبي؟»

فأغرقت فرانسي في الضحك وسألتها: «أتعنين أكبر وأكثر عاطفية من العادة؟»

فأومأت تامارا وقد منعتها غصة في حلقها من الكلام.

قالت فرانسي بابتسامة عريضة: «لا بأس.» وألقت بذراعيها حول تامارا. كان عناقاً يحطم العظام، وأحرقت قبلة فرانسي الدافئة، وجنة تامارا.

قالت وهي تعانق ابنتها للمرة الأخيرة: «تذكري دوماً أنني أحبك كثيراً جداً جداً. إياك أن تنسي هذا قط.»

ونبههما صوت فرامل الحافلة المدرسية وهي تقف في المنعطف في الخارج، فانتزعت فرانسي نفسها من بين ذراعيها مندفعة لتخرج من الباب إلى الحافلة المنتظرة، وهي تناديها قائلة بسعادة فائقة: «وأنا أحبك أيضاً.»

خرجت تامارا إلى الشرفة وأخذت تنظر إلى الحافلة، وما أن توارت هذه عن الأنظار حتى شعرت وكأنها جفّت وشاخت، إن دلواً من الدمع قد يريحها لو كانت بقيت في عينيها دموع. لقد جفت مآقيها تماماً ولم يبق أمامها

سوى أن تحزم أمتعتها وتترك الأب والإبنة ليجمعا أجزاء حياتهما التي جاءت هي فشتتها.

بعد ذلك بساعات، كانت تامارا في غرفتها تضع ملابسها بشكل عشوائي في الحقائب، تنشد السرعة أكثر مما تنشد التنظيم. فهي بما أنها قد صممت على الرحيل، إنما تريد القيام بذلك بسرعة لا تريد أن تفسح لنفسها مجالاً للتفكير في الحياة التي ستخلفها وراءها.

كان المفروض أن تعود إلى إيوا حيث أنها عاشت فيها على الدوام، ولكن بعد اعمال فكرها، وجدت أن ليس هناك سبب حقيقي يجعلها تذهب إلى هناك. فقد كانت استقالت من وظيفتها وتخلت عن شقتها عندما تزوجت من كلاي.

لم يكن لديها أية مسؤوليات. لا أحد يهتم بالمكان الذي ستعيش فيه أو كيف. وحيث أن الشتاء على الأبواب، ربما من الأفضل لها أن تعيش في الولايات الجنوبية الدافئة. فلوريدا مثلاً، أو أريزونا. إنها معلمة ومعلمة جيدة، وبإمكانها أن تعمل في أيّ مكان ولديها مبلغ جيد تعيش به إلى أن تجد عملاً.

كانت مستغرقة في أفكارها المشتتة ورغبتها في الإسراع فلم تسمع صوت السيارة التي وقفت أمام البيت، ولا الباب الأمامي وهو يفتح ويغلق، ولهذا أجفلت عندما سمعت صوت كلاي يناديها من الطابق الأرضي بانفعال: «تامارا، تامارا، هل أنت هنا؟ أجيبيني.»

فشعرت بالارتياح وهي تخرج إلى الردهة تناديه من فوق السلم: «أنا هنا في غرفتي، يا كلاي.»

صعد الدرجات مثنى وثلاثاً فبدا عندما وصل إليها، وقد ملأته اللهفة وهو يقول مبرراً تصرفه الغريب هذا: «كنت... كنت خائفاً من أن أجدك قد رحلت.»

«كلا، ما زلت أحزم أمتعتي، ولكنني لن أتأخر طويلاً.» ثم عادت إلى غرفتها.

تبعها إلى الغرفة حيث وقف ينظر حوله بينما عادت هي إلى متابعة مهمتها. قال: «لقد استدعيت إلى المستشفى الساعة السادسة صباحاً. كانت حالة طارئة لأحد مرضاي. ولم أستطع ترك المستشفى إلا الآن.»

لا بد أن ذلك كان عندما سمعته في الردهة. ولا بد أن صوت الهاتف هو الذي كان أيقظها ولكنها لم تنتبه إلى ذلك. وكانت مسرورة لأن ظهرها كان إلى ناحيته. لم تكن تريده أن يرى إلى أيّ حد كان يعني لها أنه لم يشأ أن يدعها ترحل دون أن يودعها.

قالت برقة: «أنا آسفة لدعوتهم لك باكراً. فأنت لم تنم سوى ساعتين أو ثلاث على الأرجح حيث أن فرانسي قد أيقظتك من النوم هي أيضاً.»

مضت لحظة بقي فيها صامتاً وعندما تكلم لاحظت رجفة في صوته وهو يقول: «بعد معاملتي هذه لك، لم أكن أتوقع منك الاهتمام حتى ولو لم أنم مطلقاً.»

فألقت من يدها السترة التي كانت تطويها ثم استدارت إليه. كان متكئاً إلى الجدار وقد بدا عليه التعب و... وماذا أيضاً؟ الاستسلام هي الكلمة التي تبادرت إلى ذهنها فقالت له: «إنني أهتم طبعاً.» وكان في صوتها ارتجاف ملحوظ: «لماذا لا تعود إلى النوم؟ لا بد أن

موظفة الاستقبال عندك قد سبق وألغت كل مواعيدك الصباحية...»

«تامارا، لا تتركيني.» نطق بهذه الكلمات بصوت منخفض ظنت معه أنها لم تسمعه جيداً.

نظرت إليه بعجب: «أرجو... أرجو المعذرة لم أسمعك.» فرفع رأسه ونظر في عينيها مباشرة: «أرجوك، لا تتركيني يا حبيبتي.» وكان صوته ينطق بالعذاب: «لشدّ ما كنت حماراً أحمق، ولكنني سأبذل كل ما بوسعي لكي أصلح الأمور بيننا.»

وما زالت لم تفهم ما يقصد بكلامه هذا: «لا أفهم. لقد كنت طلبت مني الرحيل فأنت لا تريدني...»

«إنني أريدك إلى حد لن أستطيع العيش معه بهناء إذا فقدتك، أظن شيئاً من الجنون أصابني عندما علمت أنك والدة فرانسي فخفت أن زواجك مني ليس إلا للبقاء معها، وأنك لم تحبيني مطلقاً وإنما كنت تستغلينني فقط.»

فقاطعته وهي ما زالت منشوشة الذهن: «ولكن لا بد أنك تعلم أن هذا غير صحيح، لقد أخبرتك وأريتك بمختلف الطرق أنني أحبك.»

فقال نادماً: «أعلم ذلك، ولكنني كنت مصمماً على عدم تصديقك. لقد كنت واثقاً من أن ليس بإمكاني الوقوع في الغرام مرة أخرى بعد أليسيا، ما جعلني غير قادر على الاعتراف بأن من الممكن أن تكون مشاعري نحوك هي حب، فقد بدا لي ذلك انعداماً في الوفاء لها. فبقيت أصدّ هذه المشاعر، أستنكرها حتى بعد زواجنا أنا وأنت،

وأنني بحاجة ماسة إلى العناية التي أغرقتني بها بكل سخاء.»

وقفت تامارا تحدق فيه مضطربة دون أن تتكلم. لم تستطع أن تصدق أنه يقول لها كل هذه الأشياء التي طالما تمنت سماعها منه، ولكن دون أن تتوقع أن هذا سيحدث.

«لقد سحقني الألم لفقدان أليسيا فلم أشأ المغامرة في حدوث ذلك مرة أخرى. وحتى الليلة الماضية، كنت أنا من يقرر إما بقاءك أو رحيلك. آه، لقد حدثت نفسي بأنني سأبعدك عن ابنتك، ولكنني كنت دوماً أوجد الأعذار لإرجاء ذلك. ففرانسي سيتملكها الأسى. ثم إن هيرتا ستتأخر في مجيئها. ولكن ميزان القوى تغير فجأة بعد الكابوس الذي انتاب فرانسي. فقد أعلنت أنك سترحلين، ولم تعودي تستمعين إلى أعذاري في إرجاء ذلك. عندئذ، انتبهت أخيراً إلى أنه ليس لي أن أقرر ما إذا كنت واقعاً في الغرام أم لا فقد سبق وغرقت فعلاً في حبك إلى درجة بالغة العمق. فإذا أنا فقدتك فلن يحرقني العذاب فقط، ولكن الذنب سيكون ذنبي أنا وحدي لكوني ذلك الحبيب العنيد.»

فتمتمت تقول: «هل معنى كلامك هذا أنك تريدني أن أبقى؟»

فقال: «أنا أتوسل إليك أن تبقي. فأنا أريدك إلى درجة تجعلني لا أمتنع عن تقديم رشوة. إننا سنخبر فرانسي بأنك أمها الحقيقية.»

كانت تامارا تعلم ضخامة هذا التنازل من جانب كلاي، فازداد حبها له لقيامه بذلك لأجلها. فقالت: «لا يمكنني

وصف مقدار شكري لك لاهتمامك هذا بي، يا عزيزي ولكن هذا ليس ضرورياً. فأنا سأبقى لأنني أحبك وأريد أن أبقى معك على الدوام وليس فقط لأنني أحب فرانسي. سنخبرها عن علاقتي بها في الوقت والطريقة المناسبة.»

تمت

www.elromancia.com
مرمورية